بلاغ
البيعة والصلاة والصيام
من أجل بصائر الآيات الطرقية

تأليف
وريد الأنصاري

خالد النيل
 للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
سلسلة: من القرآن إلينا العلم (2)

بِذَاجُ
السِّبْعَةِ التَّلَقَّاهَا

من أجل إيضاح الآيات الطريق

تأليف
فيديل الأنصاري

دار السِّلَام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
الطبعة الأولى

430 هـ - 2009 م
كتب الله الحكيم

مفتاح الكتاب

تذكر... ثم أ بصرب!

"هذا بلغ لَّتَاس وَلَسْنَّا بَيْهُ وَلَيُعْلَمَ أَنَّا هُوَ الَّذِي وَجَدَ وَلَيْدَكَ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ" (إبراهيم: 52).

ولقد كتبنا في الزِّوْرَةِ مِن بعْدِ الذِّكَرِ أَنَّ الْأَرْضَ برَثَّهَا عِبَادِي الضَّلَّاءِ فَإِنْ فِي هَذَا أَبْلَاغًا لَّقَوْمٍ عَرِيْبَةٍ" (الأنبياء: 106، 107).

"فَدَجَّلَ كَمْ بِصَبَّارٍ مِن رُؤْيَتِكَ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلْيَنْفُذَ وَمَنْ عَيْنَ فَقَلِّبهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكَ يُحَفِّظُ" (الأعرام: 114).
الإهداء ........................................................................................................ 7

مقدمة ......................................................................................................... 9

تبصرة في المنهج ......................................................................................... 20

تبصرة: في قصة بلاغ الرسالة القرآنية ............................................. 32

البلاغ الأول: في اكتشاف القرآن تدبرًا وتفكيرًا .................................. 39

تبصرة: القرآن روح .................................................................................. 40

تبصرة: ما القرآن؟ .................................................................................. 45

البلاغ الثاني: في التعرف إلى الله والتعريف به .................................... 57

تبصرة: حق الخالقية هو مفتاح المعرفة بالله .................................... 75

البلاغ الثالث: في اكتشاف الحياة الآخرة ................................................ 92

البلاغ الرابع: في اكتشاف الصلوات ....................................................... 107

حفظ الأوقات ...................................................................................................

البلاغ الخامس: في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ................................................................................. 123
تبصرة: القواعد العشر في الدعوة إلى الله: ........................................131
البلاغ السادس: في اتباع السنة تزكية وتعلية وتحليلاً .... 145
البلاغ السابع: في المفاتيح الثلاثة ............................................153
المفتاح الأول: اغتنام المجالس .............................................154
المفتاح الثاني: التزام الرباطات ...........................................161
المفتاح الثالث: تبليغ الرسائل ..............................................171
خاتمة ....................................................................................177

***
ارتحروا
إلى القلوب الضارعة إلى الله؛ المكابدة
ظلال الحيرة وتاريخ الأحزان، بحثًا عن نافذة
للإبصار – أهدي هذه البلاغات
محكم: قرّين الأنصاري
مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونوعذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعملنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلها هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاها في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محذراتها، وكل حدثة بذعة، وكل بذعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

ثم أما بعد؛ فإني أحمد الله مرة أخرى أن أرشدي اليوم إلى تقديم هذه الرسالة الصغيرة: (بلاغ الرسالة القرآنية؛ من أجل إيضاح آيات الطريق)؛ لكل باحث عن معرفة الطريق السالكة إلى الله أولًا، ثم لكل المهتمين بالمشروع الإصلاحي.
وقد كانت هذه الرسالة – أول الأمر – عبارة عن دروس، ألقحتها بمجالس بعض أصحابنا المحبين، وإخواننا الصالحين – نحسهم كذلك إن شاء الله، ولا نزكي على الله أحداً - مجالس قرآنية مباركة إن شاء الله، شهدتها مدينة مكاسة الزيتون حرسها الله، وأصلح أحوالها، تدارسنا خلالها ما تيسر منبلاغات القرآن العظيم، وهي ثمرة لما استقر عليه النظر - بفضل الله وتوافقه – من خلال بحث سابق في: (البيان الدعوي)، بعد تجربة متواضعة، عملية ووجودانية، في مجال الدعوة إلى الله، إذ صار بعدها هذا الموضوع في قلب حضور خاص، جعلني أقلب النظر فيها بين يدي من أهالي باحثًا فيها أرى وأسمع، من تجارب ومبادرات، جاهدة في تلمس طريق تقربني إلى الله، على نهج رسول الله ﷺ، في سيرته ودعوته، عسي أن أهتدي في الشأن التعبد، والإصلاحي إلى التي هي أقوم.

هذا، وقد كانت رحلتي لأداء فريضة الحج لعام: (1420 هـ/ 2000 م)، فرصة لأعيد النظر والراجع، فيها تحصل لدي من رؤى وفهم، في المجال الدعوي والإصلاحي، فشرعت - منذ ذلك التاريخ - في ترتيب النظر، وأنى أرقب واقع العمل الإسلامي، في ظل ما يحتاج العالم الإسلامي اليوم من فتن كقطع الليل المظلم، لا يكاد قطر من أقطاره ينجو منها، ومن فجور سياسي داهم، يحرق
الأخضر والياض، تهب به عواصف ما سمي بـ (العولمة)، أو (حركة توحيد العالم)، هذه الريح الاستعارية الغازية الشديدة، الجديدة في أساليبها؛ القديمة في غايتها ومقاصدها.

ثم إن رأيت الساحة الإسلامية تعج بالأفكار، من نظريات شتى، وتنظيمات شتى، وسياسات شتى، منها ما يتنافض ويتكافل، ومنها ما يتكامل، وكل يتخذ موقعه فيها - حسب استعداداته الفكرية، ومؤهلاته الكسبية، وهي - على رغم ما تزخر به من خير كثير - لا تخول من ثغرات وثبيات، لم تجد بعد من يسدها، ويقف مرابطًا على حراستها، بل إن بعض الأصول والمطلقات بقيت مكشوفة الظهر، عارية التغور، رغم تدبيجها في الورقات، لا تجد من يقف على فجها؛ لانصرف الناس إلى اقتطاف بعض الثمرات، مما نحسه خدعة واستدراجًا.

وقصة نزول الرماة عن جبل الرماة، في غزوة أحد، لم يزل نذيرها يملأ آذان التاريخ! ولكن إن في ذلك ليسترزى ليكن لهُ قلبُ أو ألغى أسلَّمهُ وهو شهيدٌ، [ق: 27]!

ولقد تبين - لم يتبين - في غبار أحداث العالم الكبرى، التي تندلع عن تواتر الأذهان الكبرى، منذ مطلع الألفية الميلادية الثالثة؛ أن مواقع المسلمين عامة، ومواقع أهل الشأن الدعوي منهم خاصة، قد تراجعت إلى خط الدفاع الأخير! ولعل في ذلك خيرًا للإسلام والمسلمين، علّمه من
علمه، وجهله من جهله، فذلك - إن أحيس استيعابه وتوزيعه - مما سيقدم انطلاقاً دورة جديدة لحركة تجديد الدين في العالم بحول الله، بمستوى أعلى، وبأداء أرفع.

ثم تبين أيضًا أن المضي بالدعوة في مسارها المشاهد اليوم في كثير من البلاد؛ مصعبًا لا يراعي الظروف الجديدة؛ إنها هو مقامرة بمصير الأمة! ذلك أن هذا المسار يغلب فيه الاستعراض على الاستهقاء، ويطغى فيه النداء على البناء! والحاجة اليوم اختلفت عنها كانت عليه قبل سنوات، ولقد نطق شرق الغرب - من قبل - بحكمة مشهورة، تنص على أن النهوض قد يقع بإنجاز (خطوة إلى الوراء من أجل خطوتين إلى الأمام)؛ ولتلك مقولة لها أصل أصيل في صناعة القتال عند المسلمين، مفادها أن: (من لا يحسن الفر لا يحسن الكر!).

وهذا نظرت بعد ذلك في كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو أصل الدين كله، منه ينطلق وإليه يعود؛ فتين لي أولًا أنه لا ينفع الإنسان في هذا كله؟ إلا ما بقي له مدخرًا في قبره، عسى أن ينفعه يوم لقاء ربه، فكان أن فتح الله بصريتي على تولية الوجهة إلى النظر في القرآن؛ تعليًّا وتعليًّا، ومدارسة وتدبرًا؛ عسى أن أهتدي في المسألة الدعوية إلى التي هي أقوم؛ فكان أن اكتشفت أنه كنت أمر على كثير من الآيات دون أن...
أبصرها! وذلك كان سببًا في كثير من البلاء والارتباك
الحاصِل في السير، هنالك كانت الثغرات التي دخل منها
المرض إلى الجسم، ويُجْمع الأطباء على أن أخطر مراحل
التطبيع هو تشخيص الداء، قبل وصف الدواء.
ثم إنه لا بد - بين يدي هذه الورقات - أن أعلن ما سبق
علي إعلانه في كتاب: ( البيان الدعوي ) من أنني أنطلق في
عملي هذا من ( مبدأ تأمين الدعوة إلى الله )، كما سلف بيانه
مفصلًا في ملذه، بأدلهه وشواهده، والمقصود بـ ( تأمين
الدعوَة ) تحريرها من كل اتهام ( حركي ) ضيق، بالمعنى
السياسي للكلمة.
لقد كان لما ضبق الاستيعاب الدعوي بالمغرب وغيره؛ أن
الكلمة الطيبة عرضت على الناس باسم التنظيمات والحركات!
حتى قاس أكثر من الشباب الدخول إلى ( الجَماعة ) على وزان
الدخول إلى الإسلام، والخروج عنها كالخروج عنه! لقد آن
الأوان لتخصيص الحركات الإسلامية الحزبية بالاشتغال المؤسسي،
والتدافع السياسي، كما هو حالها في الواقع اليوم، وهو أمر لا
ننكر من شأنه وأهميته، ولكن على أساس أن يتحرر الشأن
الدعوَي العام من قبضتها، فالتجربة أثبتت أنها ما زادته - في
المرحلة الأخيرة - إلا ضعفًا وتقويضًا!
إن ( الحركة ) مشروع اجتهادي قد تباین وجهات النظر
فيه من التوافق إلى الاختلاف، حتى التناقض والتنافس أحيانًا!
بين الدعوة أو ( الصحة ) لأغلب الأعيان اشتغال بالمعلوم من الدين بالضرورة، فلن يجعل الشأن فيها حتى إلى مجرد الاختلاف، بلِّ التنافر والتناقش! فقل لي برك لَو أنك استدعيت محاضرًا، وأرائي من كل حركة، فلم يعلم اختلافهم الحاد في مواقفهم السياسية، وبرامجهما التغييرية، ثم أوكلت لكل منهم أن يتحدث للناس في موضوع: ( الإنسان في القرآن ) مثلًا، أو موضوع: ( المقاصد العبدية في الإسلام )، أو: ( خطر الفساد الأخلاقي )، بشرط التجرد عن الهوى التنظيمي; أبَلَأ يكون الكلام منهم جميعًا واحدًا في الجوهر؟ لا تنافي فيه ولا اختلاف؛ إلاً كلاً تختلف العبارات والأسلوب في عرض الأفكار؟ فلَمَ إذن نهرن الدعوة بها لم يرهنها الله به؟ أَلَا تكون قد حجرنا وساعًا؟ بل والله! وتلك هي آفة الدعوة والدعوة في زماننا هذا، وذلك ما قدمنا التخلص منه بـ ( مبدأ تأميم الدعوة )

نقدم رسالتنا هذه إذن؛ ورقة عمل لنموذج طبيعي - 
تتلوه ناهج أخرى بحول الله، على خطوات ومرحل - من بعد أن أصلنا النظر في كتابنا: ( البيان الدعوي )، فما بقي بعد القول إلا العمل، والقاعدة أن ( كل علم ليس تحته عمل فهو باطل ).

وقد ظننا بعض إخواننا ( من هنا وهناك ) - وبعض الظن إثم - أننا بدَّلنا وغيَّرنا، وركنا إلى الذين ظلموا! فيل
هؤلاء وأولئك نقول لهما كلمة واحدة: ﴿لهُ رَبُّ وَزَّائِرُكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ لَحَجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَأَلَهَ．﴾ (القصص: 15)

لقد اكتشفنا أن النهج المعتمد لدى بعض إخواننا في الدعوة والحركة؛ نهج مرفوع، ينطلقون فيه (من القرآن إلى الإنسان)، على طريقة قياس الشبه – وهو أضعف أنواع الأقية في علم الأصول – ينظرون إلى ما عند (الآخر) من بناء، فيقيسون عليه - تشييده وتحقيقًا - ما يرون أنه يجب أن يكون عندنا، وينطلقون في بناءه؛ بل في التقليد! مع مراعاة (إسلامية) الشكل الخارجي! ويبقى الجوهر بعد ذلك يرشح بجاجيته! ﴿أَمَنَّ اسْمُكَ ﺑُيْكَنُهُ، عَلَى نَقْوَى ﻣَنَّ ﷺ وَرَضَوْنَ خَيْرًا ﻣِنَ أَسْمَاعُ ﺑُيْكَنُهُ، عَلَى ﺑَنْفُكَ ﺟَوْرٍ فَتَهْبُرَ ﻲِهِ، فَيَوْمَ ﺗَارَى ﺻِفَاءُ اللَّهِ ﻋَلَى ﺷَاءٍ لَا يُهْدِى أَلْقَوْمٌ أَفْثِرَانَاتٍ﴾ (القصص: 109).

بينما هذا القرآن العظيم يقدم نموذجه العمراني كاملاً.

إذا قررنا أن ننطلق (من القرآن إلى الإنسان) على منهج رسول ﷺ في سيرته ودعوته، هذا هو الطريق إن شاء الله! فلن نصدر كتبنا الدعوية بعد اليوم، ولا نجاجينا العملية - إن شاء الله - إلا بهذا النهج وعلى أسسه، تصويرًا وتطبيقًا.
لا نبني بناءً، ولا نعمر تعميرًا؛ إلا على أساس من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، إن القرآن العظيم تصميم رباني راقي لبناء فخم، ما كُلف الإنسان إلا بإنجازه، على شموليته وامتداده، بدءًا بعمران الإنسان، حتى عمران السلطان.

فأما عمران الإنسان: فهو البناء الكفيل بإخرج ( الإنسان القرآني)، المشار إليه في قوله جل وعلا: "إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ مَاَلِكًا بَيْنَهُ وَأَليْوَاءِ الْأَخْرَى وَآقَامَ الصَّلَاةَ وَزَكَّىَ الزَّكَاةَ} [التكوير: 18].

وحين نقول: ( الإنسان) فهو الفرد والمؤسسة، وهو الوجود الذاتي والجماعي، وهو الأسرة الواحدة والنسخة الاجتماعية، وهو العامة والخاصة، وهو المجتمع والدولة، إلى غير ذلك من الثنائيات التي يستوعبها مصطلح ( الإنسان).

ورسالتنا هذه (بلاغ الرسالة القرآنية) هي من هذا المعنى الأول.

وأما عمران السلطان: فهو البناء الكفيل بإخرج السلطان القرآني، وليس المقصود بالسلطان عنصره البشري، ومرجعه الإنسان، كلا! فذلك هو المعنى الأول وقد سبق، وإنها
المقصود به طبيعته العمرانية، وعمقه النظامي، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَلَسْنَا نُضِبِّئْنِيُّمُهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الْصَّلَاةَ وَوَاحِدَتُهَا الْفَضْلَةَ وَأَمْصَرُوا بِالْعَرْفَةِ وَنَبِثُوا عَنْ الْمَنْكَرِ وَيَتَّهِمُّونَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المهد: 41]، وليس هذا إلا نتيجة للأول، ومن عَّاسِسَها فقد قلب المنهج، ولقد بُنِئَ في كتاب ( البيان الدعوي) من ذلك؛ احتجاجًا واستدلالًا، ما يكفي إن شاء الله، فلا داعٍ للإطالة.

والذي يجمع الأول والثاني؛ ليتم كمال (العمران)، هو: (عمران الاستخلاف)، الذي يشمل كل النشاط البشري، ويستوعب كل أبعاده الكونية، وهو المعبر عنه في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَغْفِرْهُمْ وَهُوَ أَنْتَأَمَّمَ مِنَ الأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَهَا ﴾ [هود: 11].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبّكَ إِلَى جَاثِلٍ فِي الأَرْضِ ﴾ [البقرة: 130].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمَا جُعِلَتَا خَلِيفَةٌ فِي الأَرْضِ فَأَحْكَمْ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَا تَأْتِي الْمَلَائِكَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: 26].

وقوله تعالى: ﴿قَاحِمْ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ [ص: 26] هو جزء من كلي خلافته، وليس هو إياها، وقد سبق لنا في هذه المسألة تدليل وتأصيل، في كتابنا المذكور، من شاء التفصيل.
العمل إذن هو: (من القرآن إلى العمران)، إن معنى ذلك أننا ننخرط في حركة (البعثة الجديدة) التي نراها تنطلق اليوم؛ تصديقًا لوعد القرآن العظيم، ولبشرة الرسول الكريم.

وقولنا (حركة): ليس بالمعنى السياسي للكلمة، حيث يضيف اللفظ ويتقزم؛ ليتحصر في الدلالة على دائرة تنظيمية محدودة، كلاً!

وإذا (الحركة) هنا بمعناها العمراني الكبير، حركة يديرها رب الكون، الحي القيوم سبحانه، مجاها في الأرض، وتقدرها في السياق، تصميمها القرآن، ومنفّذها الإنسان، ولننا في هذا الموضوع تأصيل آخر، في خطوة تأليفية تلتو هذه بحول الله.

فإذا عليك يا صاحب الآن إلا أن تتناول التصميم القرآني لهندسة العمران، فتنشره بين يديك نشرًا، تتبين معه، وتتبصر موازنته، وتشرع في التنفيذ، بناءً وتعميرًا، وكل كلام دون ذلك مضيعة للأعهار في غير طائل، ويكفي الأمة ما أهدت - ولا تزال - من الطاقة في الجدل والكلام. ومن الكهك المتأورة، أنه (إذا أراد الله بقوم سوءًا سلط عليهم الجدل ومنعهم العمل!).

***
مقدمة

وقبل الخلوص من هذا التقديم أعلن لكل من يرغب في السير إلى الله أن هذه الورقة المتواضعة؛ هدية له مني، هدية من قلب أخلص المحبة للمحبين، فمن وجد فيها ما ينفع فهي له، ومن لم يجد من ذلك شيئًا فليدفع عنه ما يكره، والله الهادي إلى الخير والمعين عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه عبد ربه راجي عفوه وغفرانه، الفقرر إلى رحمة ورضوانه:

فريد بن الحسن الأنصاري
الخزرجي السجلي، غفر الله له ولولده ولمؤمنين.

وقد وافق تمام تبييذه وتصحيحه - بمكناسة الزيتون، من حواري المغرب الأقصى
فجر يوم الأربعاء 9 ربيع الثاني: 1432 هـ - 2002 م

***
إن عودتي إلى القرآن؛ مدارسة وتدبرًا؛ كشفت لي أنني كنت أمر على كثير من الآيات دون أن أبصرها!
نعم! لقد قادني التدبر للقرآن العظيم إلى أن أكتشف أن النظر لا يغني عن الإيصال! (1)

(1) لا بد من الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم؛ فقد كان لأستاذي العالم المربي الدكتور الشاهد البوخشي حفظه الله وسلمه الأثر الأول في إثارة اهتمامي إلى الأسرار الدعوية للقرآن العظيم، وما ينطوي عليه من كنز ومقتنيات كثيرة. يختلف فيه الناس اليوم من قضايا تجديد الدين، وذلك من خلال ما تلقيناه عنه من دروس علمية وتربيوية في وقت كان الألفيات إلى هذا نادراً. فله من الله الجزاء الأول على ما علم وربي.
ثم لا بد بعد ذلك من ذكر ما كان لرسائل بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله من أثر كبير في نقل هذا المعنى في قلبي، ذلك أنه رحمه الله إننا كان يتعامل مع القرآن بمنهج إيساري.
فقد كان مبدؤه في ذلك قوله: (كن من شئت وأبرص! وافتح عينيك فحسب؛ وشاهد الحقيقة! وأنقذ إيانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية!) (الملاحق: 105) فمثلًا في سياق تفسير قوله تعالى: "فَبَشَّرۡيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا الرِّوۡقَآءَ".
فألرخص إذن؛ نظر بلا إبصار! قال تبين: «وَتَرْبَّىْنَُمْ يَتْرُطُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يَبْصَرُونَ» [الأعراف: 198]، وقال سبحانه: «فَكَيْلَانِ نَّنَزَّلْتُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُنُّوهُ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْضِرُونَ» [يُوسُف: 105]. والقرآن العظيم مجموع كلي من الآيات الدالة على الطريق، آيات هي في حاجة فقط إلى من يبصرها؛ ومن هنا وصف الله القرآن كله بأنه ( بصائر )، قال سبحانه: «هَذِهِ بِصَبِيرٍ لِلَّاتِينِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّيُؤْمِنُ يُؤْفِقُونَ» [الجاثية: 20].

والبصائر: جمع بصيرة، وهي الآية التي تبصِّر الناس حقائق الوجود، وتدهم على الطريق السالكة إلى الله، عند

إن امتثلتم أن تبتعدوا عن أنظار النَّكتَةِ، والأناسين تأنتموا لا تقتربوا إلا تسلطتم، فأي بالآية
يرجُوهُم أن ي{jق بِصَبِيرٍ لِلَّاتِينِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّيُؤْمِنُ يُؤْفِقُونَ» [الرحمن: 32-35]، قال رحمه الله: ( البصر! ( ... وشاهد معنى الآية الكريمة في نور إعجازها الواضح
وضوح النهار، وخذ نجم حقيقة واحدة من سماي تلك الآية الكريمة، واقتفن بها
السيطان القاعب في دحلك وارجه بها! ونحن كذلك نفعل هذا) (الكليات: 210)،
وقال رحمه الله: ( لما زالت العقلة، وبصرت نور الحق عياناً) (الكليات: 240)،
وطالما كان يقول في رسالته: ( هكذا شاهدت! ) ( المتنو العربي: 158)، ن.
ذلك كله في كليات رسائل النور تأليف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي،
ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار ( سوزلر ) للنشر، فرع القاهرة ط 
بمصر ( 1412 هـ / الموافق 1992 م).
كما أنه لا بد من التبويب بها كان لأخينا الدكتور أحمد العبادي - حفظه الله
 وسلمه - من أثر في تحقيق مناط هذا المفهوم في نفس، وذلك من خلال مذاكرات
ثنائيه لا تنسي، فجزاء الله الجزاء الأولي.
تعدد الطرق السالكة إلى غيره، وتسمى ( بصيرة ) من حيث هي مشعة بالنور، الذي يكون سببًا في تبصير الأعين الواقعة عليها، ولذلك وصف الله الآيات في سياق آخر بأنها ( مُبصِّرة ) على صيغة اسم الفاعل، فنسب الإصرار إليها من حيث هي سبب فيه، كما في قوله تعالى: "وَجَعَلْنَا عَلَى الْإِلَهَيْنِ مُبصِّرَيْنِ " [ الإسراء: 12 ] أي: مضيئة للأشياء، وسبباً بذلك للأعين في الإصرار.

إلا أن الموضوع المقصود عندها هنا هو: الإصرار النفسي، أو الإصرار القلبي، لا إصرار الجوارح، فالنفس الإنسانية ( جسم ) روحاني سوي، له جوارجه النفسانية، المفقرة للبدن. وإنها البدين لباسها الخارجي، قال تعالى: "وَقَالَ لَمْ أَسْنَا وَمَا سَوْنَا " [ الشمس: 7 ] فإنصر النفس، أو إصرار القلب هو الذي يصاب بالعمى عن العقل، ويعالج بالذكر، قال تعالى: "إِنَّ ذَٰلِكَ أَتَّقَوْا إِذَا سَمَّهُمْ طُفُوفٌ مِّنَ الْأَمْوَاتِ تُحْكُمُوا فَإِذَا هُمْ مُبصِّرونَ " [ الأعراف: 201 ]، وقال سبحانه: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمِنَ الْأَبْصَرَ وَلَكِنْ تَعْمِنَ الْقَلَبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " [ الحج: 46 ].

باب الدار من أجل معرفة الطارق، وهي اليوم العداسات المجهرية التي تثبت على أبواب المنازل، فمن خلالها يطلع الإنسان على الحقيقة ويكشف طبيعتها.

ومن هنا كانت آيات القرآن مُبصّرةً، أو بصائر.

إذا نصب المؤلّه الكريم الآيات بصائر للناس، فإنهم إن لم يبصروها! لا بأس إنهم لا ي عليهم أنفسهم، وهو قوله تعالى الوارد على أشد ما تكون النذارة: "فَقَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرَ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبَصَرَ فَإِنَّ يَسْقِيَهُمْ وَمَنْ عَنَى تَعَلَّمَهُ فَيَحْفَظُونَ" [الأعام: 104]. إن هذه الآية أُمّ من أمهات الكتاب. فأعد قراءته وتدبر ثم بصائر!

تدبر ثم بصائر! لأن الإبصارة نتيجة طبيعية للتذبّر، ولذا كانت الآيات صارمة في وجوه التذبّر على ما سيأتي تفصيله وبيانه بحول الله.

- ومن أجل هذا كله خاطب الله جل جلاله الناس ذوي الأبصار، كما في قوله تعالى: "إِنَّمَا يُبَيِّنُ لِلْمُتَّقِينَ لِأُولِيَ الْأَبْصَارِ" [النور: 44]، وقوله أيضًا: "فَأَعْمَلُوا يَتَأْوِي أَلْبَاسَهُمْ إِلَى الْأَبْصَارِ" [الحجر: 2].

إن القرآن العظيم نسق كلي من الآيات، والآيات والآية جمع آية: وهي العلامات المنصوبة للدلالة على معلومة بِسِيرَّانُدُوَّ بِها في أمر ما، ومن هنا كانت الآية بمعنى: الحجة والبرهان.
والحياة الدنيا - بلا دين - ظلمات متضاربة كأمان في البحر البهيم. والناس راحلون إلى ربهم من خلال ما حدهم من أعيار، إنها رحلة شاقة مضنية، قال: «يُتأثَّبَهَا إِلَّا أَنْ يُؤْتِىْهَا كَأَنَّىْ لَذْكَة مَّلَتْ يَدْهَا» (الانشقاق: 2)، وهو لذلك في حاجة ماسة إلى الآيات؛ عسى أن يسهل عليه أمر العبء، وتتضح له معالم الطريق، ويسلك له سبيلها، تمامًا كأن لا تسلك الطريق لسائق السيارة؛ إلا بنصب علامات على كل مراحلها، وإنها العلامات: الآيات، كأن في كل معاجم اللغة، هذا شيء مهم جدًا، لكن ما فائدة الآيات بدون إيضاط؟

ودعني أقصص عليك هنا قصة التاجر والاجر:

تبصرة:

خرج يومًا أحد التجار الأغنياء، من محسوبين من أهل الدين والصلاح، يقصد عالم المدينة، فسأله في ضائقة نزلت به، يريد من خلالها التوسل إلى الاقتراض الرفوي من الأبناقة بناء على ما ظهر له فيها من الضرورة، مما لم يره العالم له، على ما يعرف منه، ومن حاله، إذ كان يمكنه بيع شيء من ممتلكاته - وعندئذ منها ما يزيد على حاجته الحقيقية - لكن العالم لاحظ من خلال إلحاحه، وإعادة عرض مشكلته؛ أن عينيه تتشوقان إلى الحصول على رخصة!
ثم حدث أن جاء إلى العالم نفسه - بعد ذلك - رجل فقير، يستغل أجرًا، مقابل ما لا يسد حاجته، فشكًا - فوق ذلك - ضائقة شديدة ألمت به، فأنزلت به وبأهله ضررًا في الأموال والأبدان! فكان نظر العالم - عل ما يعرفه منه ومن حاله، بعد استنفاذ كل أبواب الحلال - أن رأى له رخصة المضطر حقيقة، بجواز ارتكاب أخف الضررين اتفاقًا لأشدهما؛ وذلك بالاقتراض الربوي، في حدوده المقدرة بقدرها، من بعد ما اندعت السبل كلها في وجهه، ثم غاب عنه أيامًا; حتى ظن أنه قد أتم أمره، ثم لقيه بعد ذلك، ووجدته ما يزال يعاني من مشكلته تلك، والختانق لا يزداد إلا اشتدادًا عليه، فسألته عما فعل في مسألة الاقتراض، ففرز زفارة كادت تمرق قلبه! فقال: إنما تجرأت على الاقتراض منه! إن لم أستطع! إن أسأل الله أن يجعل لي خيرًا غيره!

وعجب العالم من الفرق بين صاحبيه: الأول: وهو الناجر، الذي كان يعيش حياة أقرب إلى الترف منها إلى الاعتدال، يمنعه من الربا لكنه يطمع، والثاني: الأجير الذي كان يعيش وأسرته - في كثير من أحواله - على ما لا يسد الحاجة، يفتي بالرخصة فيمتنع!

قلت: إن الفرق بينها - لو تدبرت - هو الفرق بين الأعمى والبصير! وبيان ذلك كا بلي:
فأما الأجير فقد أبصر الآيات: ﴿أَلَوْ يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ يَنْهَيْ بِالْفَسَاقِ وَيَقْفُ يَسَامَعُونَ نَجْلَسُونَ ﴾ (أنف 10) ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ يَحْبَسُونَ اللَّهَ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (أنف 10) ﴿فَأَلْبَرُوهُ إِنَّا أُنْعَمْتُمْ يِنْجِحَتْنَ إِنَّ اللَّهَ يَبْتَغَيْنَ وَحْمُ اللَّهِ إِنَّهُ مَنْ جَاءَ مَوْعِظَةً مِّنِّي رَأَيْتَ فَأَهْلُ قَلَبٍ مَا سَلَّفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَضِعَ عَادٌ ﴾ (أنف 10) 
فَأَلْبَرُوهُ إِنَّا أُنْعَمْتُمْ يِنْجِحَتْنَ إِنَّ اللَّهَ يَبْتَغَيْنَ وَحْمُ اللَّهِ إِنَّهُ مَنْ جَاءَ مَوْعِظَةً مِّنِّي رَأَيْتَ فَأَهْلُ قَلَبٍ مَا سَلَّفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَضِعَ عَادٌ ﴾ (أنف 10)
فِإنّ لم تفعلوا فأذنوا يحرفان من الله ورسوله وان يبتغوا طلبهم يروشن 
أَمْوَاهُمْ لَا تَظِيَّمونَ وَلَا تَظُّنُّونَ ﴾ (البقرة: 276-277).

لقد رأى الأجير المال الحرام، فأبصر جريء مشتعلًا! وأبصر أكلته صرعى يتحطمون في نار جهنم! الآخرين والمعتدين فيه سواء، أبصرهم يتدافعون نقودًا مشتعلة، كأن معدنها قد سك من مارج نار! وأبصر لهيبها يتطاول إلى دار الدنيا! فيحرق عشه، ويخرب بيته، ويفلخ بنه وماله، ويلتهم من حياته ما ظن أنه يعمره، لقد أبصر حقًا! أبصر ذلك كله فانكمشت يده خوفًا مما رأى!

وأما التاجر فإنّها سمع، وليس من رأى كم سمع! وكذلك كان رسول الله ﷺ يصرّ أصحابه صورة المال الحرام، ففي الصحيحين من حديث أم سلمة، عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومه بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: "إنا أنا بشر، وإنكم تحصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون أحم بحجه من بعض؛ فأفضلي له على نحو ما
سمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنها هي قطعة من النار!
فليأخذها أو ليتركها!« (1).

- وروى الحديث بطرق أخرى فيها زيادة، قال: «فإنها
أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسطعانا في عتقه يوم القيامة!
[ والإسطع: الحديدة التي تسع بها النار] فبكي الرجلان،
وقال كل واحد منهما: حقي لأخي! فقال رسول الله ﷺ: "أما
إذا قلت لها، فاذدها فاقتسامها، ثم توخيها الحق، ثم استهاها، ثم ليحلل كل
واحده منكما صاحبه." (2).

وعلى هذا النهج التربوي يفهم حنظلة
السديدي ﷺ، لما أبصر الآيات فقال: لقيني أبو بكر فقال:
كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال:
سبحان الله ما تقول! قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ،
يذكروا بالنار والجنة؟ حتى كأنا رأي عين! فإذا خرجنا من
عند رسول الله ﷺ، عافيسنا الأزواج والأولاد والضياعات;
فنسنا كثيرًا، قال أبو بكر: فو الله إنا لنقلقى مثل هذا!
فانطلقنا أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ،
قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: "وما

(1) متفق عليه.
(2) رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي، والدارقطني، وابن أبي شيبة في مصنفه،
وابن الجارود في متنفه.
ذلك؟ قلت: يا رسول الله، تكون عندك تذكرنا بالثار والجنة؟ حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضياعات، نسنا كثيراً! فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بهداه، إن لم تدومون على ما تكرون عندي، وفي الذكر؛ لصادحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرفاكم! ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة! ثلاث مرات".  

وذلك كان منهج الصحابة - من بعده ﷺ - في التبصير بالآيات، كلاً ادلهم المشتقات، ومن ذلك ما روته عائشة ﷺ من قصة مرت النبي ﷺ، حيث فزع عمر ﷺ للخبر، وكأنه لم يصدقه، فقام يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ! قال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذلك - وليعسته الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم! فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ، فقاله، قال: بأي أنت وأمي، طبت حباً وطيباً، والذي نفسي بيد لا يذقه الله موتين أبداً! ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك! فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: آلا من كان يعبد محمدًا ﷺ، فإن محمد قد مات! ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت! وقال: "إِنَّكَ مَيْتُ وَإِلَّهُ مَيْتُونِ" [الزمر: 30]، وقال: "وَمَا مُتْ إِلَّا رَسُولٌ فَدَّخَلَتِ".  

(1) رواه مسلم.
من قَبْلِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَقِيمَ مَاتًا أَوْ قُبِيلَ أَنْقُلُتمُ اللَّهُمَّ عَلَى أَعْقَبَكَ أَمْ، وَمَن يَقِيلُ عَلَى عَقِبَتِهِ قَلَن يُصِرَّ اللَّهُ سَيْبَانًا وَسَبِّجَهُ اللَّهُ الشَّهِيْكُرَينَ،] آل عمران: 144 [، فَشَنَّجَ النَّاسِ يِكْونُ (…)، قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ:
لَقَدْ بَصَرَ أَبُو بَكْرُ النَّاسَ الْهَدَى، وَعَرَفُهُمُ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَخَرَجْوَا بِهِ، يَتَلُونُ: [وَمَا خَلَفَ إِلَّا رَسُولٌ إِلَّا رَسُولٌ ﷺ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولُ ﷺ إلى ﷺ (رواه البخاري)، وفي رواية أُخَرَى عَن أَبِن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهَا قَالَ: «وَللهِ لِكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أُنْزِلَ لَهُمْ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَإِن يَسْمَعُ بِشَرِّ يَلِوْهَا!»] (1).
إنَّ هَذِهِ النَّصَوْصُ تَدْلُو بَشْكِلٍ وَضَحٍّ عَلَى الْمَنْهِج التَّبْصِيرِي، الَّذِي كَانَ يَعْتَمِدُهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ، كَأَنَّهُ تَدُلُّ عَلَى مَدْىِ الإِبْصَارِ الَّذِي كَانُوا يَتَمْتَعُونَ بِهِ فِي تَلْقَى الآيَاتِ عَن رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا سِيَاهًا اللَّهُ جَلَّ جَلَّهُ (بِصَائِرٍ)، كَأَنَّ فِي الْآيَةِ الَّتِي اخْتَذَاهَا شَعَارًا هَذَا المَعْنِي: [فَقَدْ جَاهَدُوهُمْ بِصَبَرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﷺ فَعَمَّ أَبَصَرُ فِي نُفَسِهِ، وَمَنْ عَيْنَ عَيْنٍ فَطَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخُفُظٍ] (الأَنْبَاءُ: 104).

تَبْصِرَةُ:
إِنِّ نُجَاحَ الْمَشْرِوعِ الدَّعوِي لَيْسَ رَهِينًَا بَعْدَ الْمَتَّعِينَ لَبِدَرُ ما هَوَّ رَهِينُ بَعْدَ الْمُبِيْشِرِينَ، بَعْدَ الْمُبِيْشِرِينَ، وَالْمُبْصِرِينَ!

(1) رواة البخاري.
إن هذه الورقات محاولة لوضع أسس لمشروع إصلاحي، يخاطب الوجدان الديني، الفردي والجماعي، أنتجت فيه إلى البدهات الدينية، الاعتمادية والعملية، التي تبين لي أن كثيراً من البلاء المتسلط على البلاد والعباد؛ إنما مصدره ما وقع من حيث ندري أو لا ندري - بسبب إهمال تلك البدهات ونسبياً.

وإني لأعتقد جازماً أن ظهر الحركة الإسلامية اليوم، عار تمامًا من كل حماية، فهي تقف كذلك على خط المواجهة، غير محمية الظهر؛ فتصام من خلفها كأصاب من أمامها، وأحسب أن الرجوع إلى الأصول البدهات في الدين؛ إنها هو رجوع إلى اعتلاء جبل الرماة، الذي كان إخلاوته سبب هزيمة المسلمين في معركة أحد.

وإني لأرجو أن تكون هذه الورقات فاتحة خير إن شاء الله، لنفسي أولًا، ولم شرح الله صدره لبلاغات القرآن؛ عسى أن نعود إلى التشبيك بالأصول، التي بها نكون صالحين ليراث محمد ﷺ، أو لا نكون!

ذلك هو المنهج الرباني الذي عليه وقع البلاغ بصريح نص القرآن العظيم؛ فقرأ أقول الله جل لجلله وتدبر: {ولَنُعْدَـهُ سَكِيْتًا فِي الْيَتِـوُرِ مِنْ بَعْدِ الْيَتِـوُرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْيِثُهَا عِبَادُهُ الْصَّلاَحِيُّونَ} إن في هذا لبئسًا ليقوم.
عقبة[[الأنبياء: 106، 106]]؛ {عِبَادِيُّ الْقَمَّةِ}[[الأنبياء: 105]]، وصف وشرط فيمن تجرد لطلب الإرث الرباني، فعبثا تحاول نفسك الثقلة الوصول المشرع، دون تحقيق الشرط، ذلك حق يقين يعلنه الله على العالمين جزماً قاطعاً: {إِنَّ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَلَّا يَتَّقُوِّمُ عِبَادِيُّ}[[الأنبياء: 106]]!
فيا أیها الحليم الخيران، السالك مسائل الحياة الدنيا، تبحث – مثل – عبر ليلها المظلم عن باب للخروج من الفتن.. هذا باب النور، فاقرأ وتذكر قوله تعالى: {وَلَاتَّلِينَ يُمَيِّنُونَ}[[الأعراف: 170]]، {يَلْكِنْ أَبْعَدَتْ أَلْبَاسُكَ وَأَخْفَاهَا الْخَلَايَةُ إِنَّا لَا نَرْضُعُ أَجْرًا لِّلْمُضْرِبِينَ}[[الأعراف: 170]]، اقرأ وتذكر.. ثم أبصر!
في قصة بلاغ الرسالة القرآنية

سألتي أحد المبحين يومًا، قال: كيف نجد ديننا؟

قلت:

سؤالان كبران، يرتبطان بوجود الإنسان في الكون، ويجددان مصيره فيه، لكن قلياً نضعها - نحن المسلمين - اليوم على أنفسنا؛ لأننا نعرف الجواب بداخلنا، فهل حصل لك - يا صاح - أن جردت نفسك من نفسك وسألتها يومًا كأنها شخص آخر.

السؤال الأول: هل تعرفين الله؟

السؤال الثاني: هل تعرفين القرآن؟

المشكلة هي أننا عندما نكتفي بـ ( نعم ) نكف عن البحث، ونقطع عن السير في طريق المعرفة الربانية، واستكشاف هذا القرآن العظيم!
أفرض إذن أنك - مثلي - لا تملك الحقيقة كاملة،
ولنتابع البحث معًا:

أين ما مسلمين؟ أليسنا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟ بل طبعًا، هذا شيء حسن، فذين الإسلام الذي
هو باب النجاة يوم القيامة إنها ينبغي بعد الإيام بالله على
شهدة أن محمدًا رسول الله، هذا بديهي، ومعلوم من الذين
بالضرورة، نعم، ولكن تأمل: عبارة ( رسول الله ) هذا
الوصف للنبي محمد ﷺ، هو مناط الدين، الذي قال عنه الله ﻪ: ﴿إنَّ الْذَّيِّكَ عَلَىٰ آيَةٍ إِلَّآ إِسْلَامًا﴾ [ آل عمران: 19]، ﴿وَمَن يَبْعْدَ ﻦَفْرًا ﻣِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [ آل عمران: 85]، فكل الإسلام قائم على شهادة أن محمدًا
رسول الله، فنتجع عن هذا الوصف ( رسول ) أن الدين كل
الدين - أعني الإسلام - هو عبارة عن ( رسالة )، وهذا
شيء عظيم جدًا، ندرك رسمه، وقلنا نصر حققه، وإليك
البيان:

عندما نقول: ( محمد رسول الله ) فإن الحقيقة اللغوية
والحقيقة الشرعية كليهما تقتضيان أن محمد بن عبد الله قد
جاء برسالة معينة، أي أنططت به مهمة، يقوم بتلبیغها، فكان
بذلك ( رسولًا )، ولولا ذلك لما كان له شأن في الكون
ولا في التاريخ.
آه، ما زلت تخذني عن الدهيات، والمعلومات البسيطة...
عقابًا، عفواً، اصبر علي قليلاً. ففعل عدم تأملنا لهذا الذي نسميه (بدهيات)، أو معلومات من الدين بالضرورة، هو سبب شرودنا بعيدًا عن حقائق الإسلام.
قلت لك يا صاح: الرسالة - أي رسالة، مهما كانت - لها أربعة أركان هي:
الأول: المرسل، وهو من قام بإرسال الرسالة.
والثاني: المرسل إليه، وهو الطرف المعني بها والمخاطب بفحوها.
والثالث: الرسول، وهو حامل الرسالة المبلغ لها، بتكليف من المرسل.
ثم الرابع: وهو الخطاب المرسل وهو مضمونها؛ أي متن الرسالة، ونصها اللغوي الحامل لمقاصد مرسلها.
وهذا كلها لو تدبرت منطبق على الإسلام من حيث هو رسالة.
فلاخلاصة إذن؟ هي أن الإسلام: رسالة، مضممة في متنها؛ أي في خطابها الحامل لمضمونها الرسالي، وهو القرآن الكريم، الذي هو متن الرسالة، ثم السنة النبوية التي هي ملحقها الشارح، تلك هي أول مراتب في أديانًا تترتب آنسًا. (الفاتحة: 6). لو تدبرت قليلاً.
إِنَّكَ لَوْ قَرَأَتِ الْقُرَآنَ بِهِمَا الْمَيْنَاءِ لَوَجَدَتْ عَجَبًاٰ।
فَسْؤَالُكَ بِي صَاحِبِي يُقُومُ عَلَى اسْتِعَابِ هذَا الْمَعْنِي أُولَاً،
أَعْنِي أَنْ تَجَدِيدِ الْذِّينَ يُقُومُ آسِسًا عَلَى تَبِينِ مَا ﴿تَضَرَّعَ الرَّسُولُ مُسَنَّمًا ﴾؟ ثُمَّ كَيْفُ اسْتِقْمَامِ عَلَيْهِ؟ وَبِغَيْرِ ضَبْطِ (الحَقِيقَةُ الرَّسَالِيَّةُ) لِلْقُرَآنِ فَلَا ضَيْحَانُ أَنْ تَتَقُونَ مَعَاوَاتِ التَّصْحِيحِ خَارِجَ ﴿تَضَرَّعَ الرَّسُولُ مُسَنَّمًا ﴾. وَلَيْسَ عِنْبًا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ هُوَ دَعَاءِ الْمُسْلِمِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَةٍ فِي الْبُيْوِمِ وَالْلِيلَةِ عَلَى الْمَلِكِ، اسْتَجِرْ عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ، وَأَقْرَأْهَا أَنْ تَأْمُرَ عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنْ شَاءَ الَّهُ، أَقْرَأْهَا وَتَنَبِّهُ بِقَلِيلٍ، كَلِمَةٌ كَلِمَةً، ثُمَّ اسْتَنَافُ بَعْدُ ذَلِكَ قَرَأَةٌ هَذِهِ الْكِتَابِ: ﴿أَهِيَّنَّا تَضَرَّعَ الرَّسُولُ مُسَنَّمًا ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَإِلى الْأَمْوَالِ ﴾ ﴿تَحَدَّى يَا بُنَائِهِمْ ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَهُمْ إِلَّا عَزِيزٌ أَمْهُرٌ ﴾ ﴿فَأَمْلَى لَهُمْ عَلَىٰ الْمَوْعِظَةِ ﴾. [الفاتحة: 7].

مَهْمُ جَدًّا أَنْ تَتَحْضِرَ فِي ذَهِنِك وَوَجْدَانَكَ: أَنَّ الْقُرَآنَ يَجِبُنَا عَنْ نَفْسِهِ; أَنْ رَسَالَةُ، جَاءَتْ تَحْجُّمُ (الهَدَايَةُ) لِلنَّاسِ الحَيَارِ – وَكَلِ النَّاسِ لَوْ لَوْ لَوْ الْذِّينَ حَيَارِ – وَيُرْسِمُ لَهُمْ مَعَالِمُ الْصَّرَاطِ اقْتِطَعْيُهُ، فَتَنْبَدِرُ قَوْلُهُ تَعَالَ: ﴿وَإِذْ أَوْحَى إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمَرِيْقٍ ﴾ مَا كَذَّبْتَ مَا لَكِنْ لَكَ لَأَلْقِيَ وَلَا تَقْرَأْنَ وَلَا تَتَهْنِئَنَّ تُورَا ﴿تَحَدَّى يَا بُنَائِها مِنْ عَبْرَانٍ ﴾ وَإِنَّكَ لَيُهْدَى إِلَىِّ صَرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿فَأَمْلَى لَهُمْ عَلَىٰ الْمَوْعِظَةِ ﴾. [الشَّرَحُ: 53، 54].
وهنا فقط ندخل إلى صلب الموضوع:
إن الشعور بالمعنى الرسالي للقرآن، إنها يتحقق لك على المستوى النفسي؛ إذا تصورت طبيعة الوجود البشري، ذلك أن الإنسان إذ جاء من عالم الغيب، قد أحاطته به حجب عالم الشهادة ففقد الاتصال بأصله الغيبي؛ إلا ما كان من نداء الفطرة الخفية في قلبه.

إن ميلاد كل شخص من بطن أمه، ونزوله إلى الدنيا، هو كنزور آدم عليه السلام، من الجنة في عالم الغيب، إلى الأرض في عالم الشهادة، حيث تبدأ حجب الحياة الدنيا تسج على الإنسان غلائ السنان وترقه في جزئيها اليومية، فيضرب بعيدًا عن استشراف السماء مرة أخرى، ومن هنا اقتضت رحمة الرب العظيم - وهو الرحمن الرحيم - أن يرسل الرسول إلى الناس، أن يبينها الناس أجذبوا زيكم الدي خلقكم وأهلين من قبلكم لستكم تنفقون 5 أذى جعلكم الأرض فزروا واستمتعا بنته وأنزلًا من السماء ماء فألقحي به من الفترات ردقًا لكم فلا تجعلوا الله أندادًا وأنتم تعصدون [البقرة: 22: 1].

باقية للرسالة من عالم الغيب لتربط الإنسان بأصله الحقيقي، وتشعره بسعة الكون، وربوبة الخلق، وحيطة بكل شيء، ثم تعلمه بقصته كاملة من النشأة حتى المصير، وما له في ذلك كله وما عليه، فجاء القرآن لذلك في
صورة (بلاغ) رباني، هذا مصطلح مهم; للتعرف على طبيعة القرآن: إنه (بلاغ) فيه دلالة عميقة على (رصد التبلغ) لمضمون الرسالة; حتى يتم العلم بها على التهام عند من قصدوا بالتلبغ والإعلام، ذلك أن (بلاغ) في العربية يرد بمعنى (التلبغ والإبلاغ)، جاء في لسان العرب: (بلاغ) والإبلاغ: الإبلاغ! في التنزيل: (لاقَبَ اللَّهُ مَنْ أَيْنَى وَرَسَّلَهُ.) [الجح: 23]؟ أي لا أحد منصئ إلا أن يبلغ عن الله ما أرسلت به، والإبلاغ: الإبلاغ، وكذلك التلبغ، والاسم منه البلاغ(1) ومن هنا كان (بلاغ القرآن) جامعا للمعنى معًا: البيان والتبين، فهو (بلاغ)! أي بيان إعلاني في نفسه، يوصل إلى الناس بنصه مجموعة من العقائد والمبادئ، وهو (بلاغ) أيضًا: أي تبين رسالي من حيث هو حركة في المجتمع، يقوم بها الرسول ومن ينوب عنه من الدعاة والعلماء المصلحين؛ لتلبغ مضامينه وإيصال نصه إلى الناس أجمعين؛ حتى تشمل الرسالة كل العالمين؛ ومن هنا قوله تعالى: (هذا بُنِيّاً لِلْئَاسِ وَرَبِّي ذَلِكَ يُبَلِّغُ وَيُعلِّمُ أَنَّمَا هُوَ إِلَّهُ وَيُجَادَلُ وَلَيَدْكَ أَوْلُو الأَلْوَانِ.) [إبراهيم: 52].

- إنه بلاغ قادم من عالم البيب، من فوق سبع سلاوات، إلى عالم الشهادة، إلى الإنسان المتحرك فوق هذه الأرض.

---
(1) لسان العرب: مادة (بلاغ). طبيعة دار صادر، بيروت.
وبين العالمين مسافة رهيبة، لا يستطيع العقل استيعابها، فهي أوتي من قدرة على الخيال، فجاء القرآن رسالة تعبر تلك المسافات كلها لتلقي على الإنسان خطاباً ربانياً عظيماً، يحمل قضايا محددة، قصد ( إبلاغها ) للإنسان، قضايا أو إن شئت.
فقل: ( بلاغات ) هي مناط مسؤوليته، ووظيفته في الأرض، يمكن أن نلخصها في سبعة بلاغات، أرجو أنها أصول لما سواها من مقاصد الإرسال الرباني.

ولقد كان أول هذه البلاغات هو القرآن نفسه، أعني أن أول ما جاء القرآن ليبلغه إلى الناس هو هذا المعنى الرسالي للقرآن؛ حتى لا يقرأ أحد أو يستمع إليه، بعيداً عن هذه الحقيقة الكونية الكبرى؛ فلا يستطيع من بلاغاته الربانية شيئاً.

إن أول ما يجب أن يعرفه الإنسان من القرآن هو طبيعة هذا القرآن، من حيث هو رسالة رب الكون، مرسلة إلى واحد من أهم سكان الكون: الإنسان أنت، يا صاح، وأنا، وكل إنسان.. فكان ذلك هو البلاغ الأول للقرآن.. فتدبر! ثم أبصر! 

***
في اكتشاف القرآن تدبرًا وتفكيرًا
لا سبيل إلى معرفة الحقيقة إلا عبر هذا القرآن أولًا، ولا يكون ما دونه من طرق المعرفة إلا تواضع له وملاحظ، فهو متن الرسالة التي أرسلها رب العالمين إلى الخلق، وما سواء شروح وتفاسير؛ ويا لتعاسة من ضل عن هذا الأصل العلمي العظيم، إذن يضرب في التيه على غير هدى. قال تعالى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي إِلَيْهِ هُدًىً أَقِيمَ وَيَنْبِئُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ الصَّلَايَاتَ أَنَّهُمْ أُجْرَاءُ كَبِيرٌ وَأَنَّ الْذِّينَ لا يَعْمَلُونَ الْبَغْضَاءَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْثَنَاهُمْ عَدَادًا أَيِّمًا" [الإسراء: 9، 10]. وقال مسندًا بقوة على الذين حرفوا وبدلوا وغيروا: "وَلَكِنْ كُنْوا رَبِينَاءَ يَا كُنتُمْ تَعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَيَكُونُوا تَدْرِسُونَ" [آل عمران: 79]، ذلك سبيل الربانية الأوحد، لا سبيل سواء؛ فتدبر.. ثم أبصر!
تبصرة: القرآن روح:
من أعجب الأوصاف وألفتها، ومن أغرب الأسماء وأروعها; التي سمى الله بها كتابه الحكيم، هي: أنه روح!
وذلك قوله تعالى: "وَقَدْ كَانَ أَرْضَ الْجَاهِلِينَ رَوحًا مِّنْ أُمُورٍ مَّا كَانَ مُأْتِئٌ يَتَسَلِّمُ مَا يَتَسَلِّمُ وَلَآ يَأْتِيَنَّهُ وَلَکَ، جَعَلَنَّهُ نُورًا تَهْبِيدُ يَهُودًا مِّنْ نَّاسِهِ مِّنْ يَبَادِرُونَ وَإِنَّ لَهُ آذَانَ إِلَى مُحْكَمَةٍ مُّسْتَقِيمَةٍ سَرْحَّالِ الْالَّهِ الَّذِي أَلْقَى الْعَرْضَ مِنْ أَمْرِهِ وَمَا فِي الْعُمَورِ" [الموهود: 53].
والروح له في القرآن خصائص. نذكر منها اثنتين:
الأولى: أن جوهره ممتع الإدراك، وإنها الشأن فيه أن يقول:
( إنه من أمر الله )، قال جل جلاله: "وَيَشْكُونَ عَنِ الْرُّوحِ قَلُوُّ أَنَّ أَمْامَيْنِ مِنْ أَمْرِيُّرَتَنِي وَمَا أُوْنِيَتْ مِنَ الْعَبْرَاءِ إِلَّا قَلَطًا" [الإسراء: 85].
وسمى القرآن هنا أيضًا: "رَوحًا مِّنْ أُمُورٍ" [الموهود: 52].
والثانية: أنه سبب الحياة، وبايعتها - بإذن الله - في سائر الأحياء، فبمثابته تحيا الأجساد، وبمفارغته تموت. كا هو منطوق كثير من الأحاديث النبوية. وذلك نحو قوله:
إن أحدكم يجمع خلفه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفح فيه الروح... الحديث." (1)
وقال
(1) منتفع عليه.
في وصف الموت: "إن الروح إذا فص بثبه البصر"، وفي الصحيح أنه: ( نهى أن يتخذه شيء في الروح غرضًا) (1)، فقوله: (شيء في الروح) يعني من الطير وسائر الدواب، فلا يجوز اتخاذه غرضًا للمرمي بالنبل، أو الرصاص، قصد الاستمتاع واللهرو لا لمنفعة الصيد؛ لما فيه من الاعتداء على الروح، وتخريب خلق الله بلا هدف مشروع.

والشاهد عننا أن الروح هو سبب الحياة، فهي توجد بوجوده، وتندفع بالناس عنه.

وإنها كان القرآن وحًا لأنه سبب حياة هذه الأمة، من حيث هي (أمة)، وسبب حياة القلوب، فلاإمتوف قلب خالطت نبضه آيات القرآن الكريم، ولا حياة لقلب خلي منها.

فأقرأ الآية مرة أخرى، وتدبر، ثم حاول الإ بصار: (2) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَوْحًا مِّنِّنَا أَنْ تَكُنْ سَبِيلًا مَا كُتِبَ وَلَا إِيمَانَ وَلَكِنْ جَعَلْنِي نُورًا تُهْدِي بِهِ مِّنْ شَيْءٍ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ إِلَى الْإِنسَانِ وَإِلَى الْآدَمَ آتِيْرٌ الْأَمْوَرِ (الأنبياء: 50) ، ذلك محمد بن عبد الله، عليه صلاة الله وسلم، كان يحاول أن يخرج من ظلمات الجاهلية، إذ لم

(1) رواه مسلم.
(2) رواه أحمد والترمذي والنسائي، وصححه البخاري في صحيح الجامع (6817).
يقتنع بأفكارها، وضلالاتها؛ فاعترضها، لكنه لم يجد تفسيراً للغز الذي يغلف هذا الوجود؛ حتى نزل عليه الروح بالروح، أي حتى نزل عليه جبريل بالقرآن من أمر الله؛ فأحياء الله به بعد موات، وأثار بصيرته به؛ فصار من البصرتين، يهدي إلى صراط مستقيم، بمعالم فضله هذا الكتاب، الذي يصف ما بين السماوات والأرض، ويُخبر عن أسرارها، من بدء الخلق إلى يوم البعث، ويرسم الطريق للإنسان خلال ذلك كله؛ كي يسلك إلى ربه ويعرف عليه، فأنى لك يا صاح أن تجد مثله؟

ومن هنا وجب أن تكون خطوتلك الأولى، في طريق المعرفة الربانية؛ أن تعرف على القرآن، بل أن تكشفه؛ ولذلك جاء الخطاب القرآني يحمل أمر القراءة للقرآن؛ تلاوًة وترتيبًا، وأمر التعليم للقرآن مدارسة وتدبرًا.

والتدبر: هو غيّة كل ذلك ونتيجته؛ ولذلك قال تعالى: ەۖ «كُتِبَ أُرْزُقُهَا إِلَّا أَذَكَّرُواْ الْيَوْمَ الْآخِرَ» [ص: ۲۹] فجعل غيّة الإدراك للقرآن التدبر والتذكر، ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيّار، فالتدبر هو النهج القرآني الأمور به لقراءة القرآن العظيم؛ ومن هنا زجره تعالى للناس الذين لا يتدبرونه، قال سبحانه: ۖ «فَأَفَاسَا نَبِيُّوْنَ الْقُرْآنَ ؟ أَتَأْثِرُ عَلَىْ قُلُوبِ أَقْتَلَاهُمَا» [النساء: ۲۴]؛ ۖ «فَأَفَاسَا نَبِيُّوْنَ الْقُرْآنَ ؟ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِبَادِي أُنْفِقُواْ لَوُجَدُواْ فِيْهِ أَحْسِنَافًا صُبْحًا» [النساء: ۸۸] .
نبصرة: فما التدبير إذن؟
تَتَدبَّر الشيء - في اللغة - يَتَتَدبَّر: تتبع دبته، أي نظر إلى أواخره وعواقبه ومآلاته، كيف هو إذا صار إليها؟ وكيف يكون؟ جاء في لسان العرب: ( وَدَبْبَرُ الْأَمْرِ وَتَتَدَبَّرُهُ. نظر في عاقبته، واستدبره: رأى في عاقبته ما لم ير في صدره؛ وعرف الأمر كَذَّبَرُ.; أي بَأَخْرَةُ [...] والتَتَدَّبَرُ في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتَتَدََّبَرِ: التفكير فيه).
فتدبر القرآن وأيام القرآن: هو النظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس وفي المجتمع، وذلك بأن تقرأ الآية من كتاب الله، فتتنظر – إن كانت متعلقة بالنفس – إلى موقعها من نفسك، وأثارها على قلبك وعملك، تنظر ما مرتبطك منها؟ وما موقعك من تطبيقها أو خالفتها؟ وما آثار ذلك كله على نفسك، وما تعانيه من قلق واضطراب في الحياة الخاصة والعامة؟ تحاول بذلك كله أن تقرأ سيرتك في ضوئها باعتبارها مقياسا لوزن نفسك وترويماها، وتعالج أدوائك بدوائها، وتستشفي بوصفاتها.
وأما إن كانت تتعلق بالمجتمع؛ فتنظر في سنن الله فيه كيف وقعت؟ وكيف تراها اليوم تقع؟ وكيف ترى سيرورة المجتمع وصيروته في ضوئها؟ عند الخلافة وعند الموافقه وعند المواعفة... ثم تنظر ما علاقة ذلك كله بالكون والحياة والمصير؟

(1) لسان العرب، مادة: ( دير ).
وها تلج إلى باب آخر من أبواب القرآن ردف للتدبر، بل هو منه، ذلك هو التفكر، إن التفكر غالبًا ما يرد مذكرًا في القرآن في سياق النظر في خلق الله، والتأمل في بديع صنعه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُخَلِّصٌ لِّلْيَلِّ وَالْيَوْمَ ۚ لُقَاءٌ لأَوَّلِ الأَلْبَابِ ﴾، وَذِكْرُونَ اللهِ قَبْلًا وَشَدَدًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ ﴿كَبْرَىٰ إِنَّ اللهَ بِشَكْرِكُمْ فَوَدُودًا ﴾، وَبِالْقَلْبِ يَشْكُرُونَ، يَذْكُرُونَ اللهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿لَا تَبْدِعَ وَالْحَلَّىٰ ۖ وَنَحْنُ نَحْيُكُمُ الْقَرَءَۡاَءَ ﴾.

[[آل عمران: 190 - 194]]، فكل هذه الأدعية العابدة، الحارة، الخشوعة، الباكية، إنها هي ناتجة عن الإحساس الحاصل للعبد بِعيد التفكر في خلق الله، فاقرأ الآيات وتدربر. تجد أن المؤمن لم يسبح في جنبات الكون الفسح، يشعر بعظمة الله الواحد القهار، وتأخذه الرهبة من جلال ملكه وعظمة سلطانه، فيسعه هاربًا إلى مساكن رحمته، وجمال غفرانه.

ويبأ أن القرآن كتب جبل المتدبر له على امتدادات الكون، ويرجع به إلى كشف كثير من أسرار الوجود، وغرائب الخلق؛ فإن (التذكر) الذي هو المنهج الرباني لقراءة القرآن، بِجلِّ الإنسان على (التذكر) الذي هو المنهج الرباني لقراءة
الكون، فيكون كل متدبر للقرآن متفكرًا في الكون، فقرأ - بقراءة القرآن - كل أيات الله المنظورة والمروعة سواء.

وبذلك كله يتم لك شيء آخر، هو: الإنصار.

إنه التدبر والتفكير كليهما، يعتبران بمثابة الضوء، أو الشعاع المسلط على الأشياء، تمامًا كأن تسلط الشمس أشعتها المشرقة - في اليوم الصحو - على الموجودات، فتبصرها الأعين الناظرة، فكذلک التدبر يكشف حقائق الآيات القرآنية، والتفكير يكشف حقائق الآيات الكونية، حتى إذا استنارت هذه وتلك؛ أبصارهما المتدرون والمتفكرون، وكانت لهم فيها مشاهدات، لا تكون لغيرهم، ولذلك قال تعالى: "فَقَدْ جَآءَكُم بِصَبًآرٍ مِنْ رَءَيْكُم فَمَعَ أَبِصْرِكُم فَتَقَدَّمَتْ قَلْبَكُمْ مِنْ فَتْحِيُهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم مَّعَفِيضٌ" [الأنعام: 104]، وقال سبحانه: "فَأَذْكَرُوا إِنَّا أُخْطِئْتُمْ أَنَا أَلْبَسَتِكُمْ وَأَنَا أَخْتِرُكُمْ" [الحجر: 2].

هكذا وجب أن تقرأ القرآن آية آية؛ اقرأ وتدبر ثم أبصر! عسى أن ترى ما لم ترى، وتدرك من حقائقه ما لم تدرك من قبل؛ فتكون له متدبرًا.. فتدبر!

تبصره: ما القرآن؟
ولنسأل الآن: ما القرآن؟ ما هذا الكتاب الذي هز العالم كله؛ بل الكون كله؟ أجمع العلياء في تعريفهم للقرآن على أنه ( كلام الله ).
وختلفوا بعد ذلك في خصائص التعرف ولوازمه، ولا نقول في ذلك إلا بما قال به أهل الحق من السلف الصالح، وإنما المهم عندما الآن هنا بيان هذا الأصل المجمع عليه بين المسلمين: { القرآن كلام الله }، هذه حقيقة عظمى، ولكن لم تدبرت قليلاً... 

الله خالق الكون كله. هل تستطيع أن تستوعب بخيالك امتداد هذا الكون في الأفاق؟ طبعًا لا أحد له القدرة على ذلك إلا خالق الكون، فالتمتداد الذي ينتشر عبر الكون مجهول الحدود، مستحيل الحصر على العقل البشري المحدود، هذه الأرض وأسرارها، وتلك الفضاءات وطبقاتها، وتلك النجوم والكواكب وأفلاكها، وتلك السهاء وأبراجها، ثم تلك السياوات السبع وأطباقيها... إنه لضرب في غيب رهيب لا تخصره ولا ملايين السنوات الضوئية، أين أنت الآن؟ أسأل نفسك... أنتم هنا في ذرة صغيرة جدًا، تأتيها في فضاء السهاء الدنيا - الأرض - وربك الذي خلقك، وخلق كل شيء، هو محيط بكل شيء قدرة وعليًا... هذا الرجالة العظيم، قدّر برحمة أن يكلمه أنت، أيها الإنسان؛ فكلمك بالقرآن؟ كلام الله رب العالمين، أو تدري ما تسمع؟ الآية ذات الجلال رب الكون يكلمك فآسِئَ لِلَا يُؤَاذِيُّهُ [ 13:12 ]، أي وجدان، وأي قلب؛ يتذبر هذه الحقيقة العظمى فلا يفتر ساجدًا الله الواحد القهار رضي ورهبًا؟
كلام الله هو كلام رب الكون، وإذا تكلم سبحانه كلام من علٍ: أي من فوق؛ لأنه العلي العظيم، فوق كل شيء، محيط بكل شيء، عالٍ وقديمة، إنه رب الكون. فتدبر: فلا إله إلا هو، يكفي بكل شيء ومحيط، [فصلا: 54]، ومن هنا جاء القرآن محيطًا بالكون كله، محددًا عن كثير من عجائبه، قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن: قل كلام أفقيَّ أكبر موقع النجوم رآته لَّقد تعلمنَّه، إنه للزكاء مكتوب، لا يرسبه إلا المطهر، [الواقعة: 70-71]، سبحانه ربنا ولا بأي من آياتك نكذب.

ذلك هو القرآن.. كلام من أحاط بمواقع النجوم، خلقًا
وأمرًا وعليًا وقدرة، وإبداًعًا، فوجئ كتابه بثقل ذلك كله، أنزله 
على محمد ﷺ، من بعد ما هيأه لذلك، وصنعه على عينه 
سبحانه جل وعلا، فقال له: "إِيَّاُنَّكُمْ أَسْلَطْنِي-٢٥٧[الزمر: ٥])، 
ومن هنا ما كذب الكفار بالقرآن، نعى الله عليهم ضالة 
تفكيرهم، وقصور إدراكهم، وضعف بصرهم، عن أن 
يستوعبا بعده الكوني الضارب في بحر الغيب، فقال تعالى: 
فَوَقَّالَهُمُ الْأَوَلُؤُ الْأَوَلِينَ أَسْجَلْتُهُمَا فَعَلَّمْنَاهُمْ عَلَى٥٢٥٢٥ 
الزمر: ٥]، وأصبروا! ﴿كُلُّ نَزُولٍ ذَلِّيْنَ أَنْزَلْنَا الْبَيْنَيْنَ فِي الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّمَا 
كَانَ عَفَؤَاتُكُمْ﴾ [الفرقان: ٥٢]، 
وإن هذه عميق جدًا، ومن هنا جاء متحدثًا عن كثير من السر 
في السهوات والأرض، قال ﷺ: "وَلَقَدْ صَرَفَنَا فِي هَذَا اْلْقُرْءَانِ 
الاثنيين من حكمي مثلً وَكَانَ الْإِنسَانَ أَسْرَى٥٢٥٣٢٥ 
[الكهف: ٥٤]، وقال: "سُرْىُهُمَا إِبْتِينَا فِي الأَفَاقَ وَقَى أَنفُقُهُمْ حَتَّى يَبْنُوُنَّ لَهُمْ أَنَّهَا 
الْأَخِيَّةَ أَنْتُمْ يِنْفَقُونَهَا أَنْتُمُّ إِلَى مَيْتِينَ وَسَيْهَبُونَ أَلَٰٓا إِلَٰهَيْنَ في مَهْيَان٥٢٥٤٥٢٥ 
يَحْيَى وَيَحْيَى لا إِلَٰهَ إِلَّا يَحْيَى وَيَحْيَى ﴿[فصل: ٥٤٥٣٥٤]. 
فلليس عجبًا أن يكون تالي القرآن متصلا ببحر الغيب، 
ومأجورًا بميزان الغيب، بكل حرف حسنة والحسنة بعشر 
أمثالها، والحرف إنا هو وحدة صوتية لا معنى لها في اللغة، 
نعم في اللغة، أما في القرآن فاحرف له معنى، ليس بالمعنى 
الباطني المتحرف، ولكن بالمعنى الرباني المستقيم، أو ليس 
هذا الحرف القرآني قد تكلم به الله؟ إذن؟ يكفيه ذلك دلالة
وأي دلالة، ويكفيه ذلك عظمة وأي عظمة، فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ( ألم ) حرف، ولكن ألف حرف، ولأم حرف، وميم حرف» (١).


إنه تعالى تكلم وهو متكلم، سمع، بصير، عليم، خبير، له الأسئلة الحسنى والصفات العلي، نثبتها كي أثبتها السلف، ولا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، لقد تكلم.

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. انظر سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيهن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، كما رواه الحاكيم أيضًا في المستدرك.
(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي، وأبو داود، وأبن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الكبير (٨١٢)。
(٣) رواه الترمذي والحاكم وحسن الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨٠٣).
كتاب الله هو حبل الله الممتد من السماء إلى الأرض» (1)، وقال في مثل ذلك أيضًا: «أبشروا. فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً» (2).

ووري بصيغة أخرى صحيحة أيضًا فيها زيادة ألفafe، قال: «أبشروا. أبشروا. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: بل، قال: فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً» (3).

(1) رواه الطبري في تفسيره (٤/٣١)، نشر دار الفكر بيروت لبنان (١٤٠٥ هـ).
(2) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٤٧٣).
(3) رواه الطبري بإسناد صحيح، وهو في صحيح الجامع الصغير (٣٤).
(3) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حيد في المختصر من المسند، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧١٣). نشر مكتبة المعارف بالرياض، لصاحبه سعد بن عبد الرحمن الراشد، طبعة جديدة بتاريخ (١٤١٥ هـ/١٩٩٥ م).
ذلك أن القرآن جاء - وهو من رب العالمين - ببلاغًا إلى الناس أجمعين، يحمل رسالة ذات مضامين من النبيّ الرسولي العظيم، نبأ الخلق، نبأ الكون، نبأ الغيب، نبأ الشهادة، نبأ الحياة، ونبأ الموت، ونبأ البعث القريب. ونبأ الأمر الإلهي الحكيم في ذلك كله، وكلف رسوله ببلاغه جميعًا إلى الناس، فقال له ﷺ: {ذا الذي ﷺ نبأ الخلق ونبأ الكون ونبأ الخلوي ونبأ الحياة ونبأ الموت ونبأ البعث القريب، ونبأ الأمر الإلهي الحكيم في ذلك كله} [المائدة: 17]، وقال أيضًا: {قل إني لفيجي من الله أحد وليؤمنوا به ملتحمون} [الأبلق: 1]، ونتيجة الله ورسوله، فإن الله ﷺ نار جهنم خليلين فيها أبدًا] [الجح: 32-33]، وقال سبحانه: {هذا بلغت للكافرون وليصدروا به وليعلموا أنه هو ﷺ جعده وليذكروا أولاً الآية} [إبراهيم: 52]، وقال: {إفما أعتلك البلاغ وعليك السبب} [ال Reed: 40]، ومن أشد المعارض القرآنية لهذا المعنى وفقًا على النفس، قوله تعالى للمؤمنين من هذه الأمة - بعد آية تحريم الحمّار مباشرة - {وإطعوا الله واطعوا الرسول واحترمو فإن قولتم فاعملوا أنتما على رسول الله البلغ المبين} [المائدة: 92]، ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم، مما ينطق عن طبيعته البلاغية (بمعنى الرسالي للكلمة، وما ينتج عن ذلك من إعجاز وإنذار، ومن تثقيف الأمة الملقاة على عاتق كل مسلم، بل كل إنسان بلغته الرسالة.

ومن هنا فما كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الله إلا -هذا القرآن- استجابة لقوله تعالى: {فلا تطيع الكفرين وجوههم}.
في البلاد، إذ يرسل صاحبته إلى الأقاليم والأمصار، فإنها كانوا يدعون الناس بالقرآن، كا هو الشأن في بعث أصحابه إلى المدينة، فعن البراء بن عازب قال: (أول من قدم علينا من أصحاب النبي: مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرئنا القرآن).

هي الرسالة وصلت من رب العالمين إلَّا أيا الإنسان،

(1) أخرجه أبو بيل في مسنده، وابن هشام في السيرة، والبيهقي في الدلائل، وأبو نعيم في دلائل النبوة، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، والحاكم في المسند، ورواه البخاري، وفي حديث أباه الرحماني في صحيح البخاري.

(2) رواه البخاري.
فاحذر أن تظنك غير معني بها في خاصة نفسك، أو أنك واحد من ملايين البشر، لا يُذْرِى لك موقع من بينهم، كلاً! إنه خطاب رب الكون، فيه كل خصائص الكلام الرباني، من كمال وجلال، يعني أن الله يخطب به الكل والجزء في وقت واحد، ويحيي شعور الفرد والجماعة في وقت واحد، فقل إن نُحْطِوا ما في صدْورِهِمْ أو بُنْذُوا يُصَلِّنَّهُمْ الله وَيَسْتَمِعُ كِتَابُهُمْ [٩٦١] وما في الأرض والله على كل شيء وقوامٍ». [آل عمران: 29].

سبحان الله، لا يشغله هذا عن ذاك، وإنما فا معنى الروبية وكبيرةً؟ تمامًا كما أنه قادر على إجابه كل داع، وكل مستغث، من جميع أصناف الخلقت، فوق الأرض وتحت الأرض، وفي لجع البحر، وتحت طبقاته، وفي مداريات السماة... إلخ، كل ذلك في وقت واحد - وهو تعال فوق الزمان والمكان - لا يشغله شيء عن شيء، له الملك، له الحمد، وهو على كل شيء قدير، فهذا المنطق نفسه أنت إذ تقرأ القرآن تجد أنه يخطبك أنت بالذات، وكأنه لا يخطب أحدًا سواء، احذر أن تخطئ هذا المعنى.. تذكر أنه كلام الله، وتدير، ثم أبصر!

قال تعالى: "فأُقِلْ يَتَذَكَّرُوۡا ٱلۡقُرۡآۡنَ ۖ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفۡقَانُهَا؟" [م١٧٩]. فأُقِلْ يَتَذَكَّرُوۡا ٱلۡقُرۡآۡنَ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ ۚ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا فِيۡهَا أَخۡيَالُكُمُّ ۖ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ ۖ إِنِّي عَنۡدِيۡ عِيۡنٌ أُمۡثَلُوۡا F]... فتدير!.

ذلك هو القرآن: الكتاب الكوني العظيم، اقرأه وتدير،
فروا كل كلمة منه حكمة بالغة، وسر من أسرار السياوات والأرض، وحقيقة من حقائق الحياة والمصير، ومفتاح من مفاتيح نفسك السائرة كرها نحو نهايتها. فتغدر. إن فيه كل ما تريد، ألسنت تريد أن تكون من أهل الله؟ إذن; عليك بالقرآن، اجعله صاحبك ورفيقك طول حياتك؛ تكن من ( أهل الله ) كما في التعبير النبوي الصحيح، قال عليه الصلاة والسلام: ( إن الله تعالى أهله من الناس: أهل القرآن هم أهل الله، وخاصته).

وأخيراً: فإن في كتاب الله آية عجيبة، تدللك على الطريق: كيف يبدأ، وكيف ينتهي; تدبر قوله تعالى: (وءَلَّا يُزَكِّيكُونَ إِلَّا لِكَانَوا أَصَلَّوْا إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْصَّلَّيْبِينَ) [الأعراف: 170]. 

تمسك بالكتاب أولًا؛ وهو الأخذ بلغاته بقوة، وإقامة للصلاة ثانياً: وهو إحسان أدائها والسير إلى الله عبر مواقيتها، ثم انطلاق إلى الإصلاح والدعوة إلى الخير. (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْصَّلَّيْبِينَ) [الأعراف: 170]، تلك إذن المدارج الأولى للمساكين، كما سترى بحول الله 

هذا غاية ما عندي يا صاحب عن القرآن، فلا تغتر بها عندي; إنه لا يحدثك عن القرآن إلا القرآن؛ تغدر.. أقرأ أية فاية، وتغدر.. ثم أبصر!

(11) رواه أحمد والسناوي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (2165).
أبصر لنفسك! فإن الإبصار لا ثوابه فيه لأحد عن أحد، وإنما الذي يمكن أن أساعدك به هو التبصير بمنهج الإبصار لآيات الطريق، حتى إذا أبصرت، ربما رأيت فيها ما لم أر، وأبصرت منها ما لم أبصر!

تبصر:

القرآن إذن؟ هو متن رسالة الله... يمنحك أول مقصده الإرساليّة: معرفة الله، مرسل الرسالة إلى الخلق، تلك حقيقته الأولى، وهي أول ما يرفع بصيرتك إلىه، عسى أن تبصر جمال الخالق جل جلاله؛ فتكون من العبادين.

فأسأل نفسك: هذه هي الرسالة: القرآن، ولكن؟ هذا المرسل. من يكون؟ ومن هو؟

هذا أول المعرفة الرتبة، وهو في مقصاد الخطاب القرآني، البلاغ الأول، ذلك من حيث الرتبة لمقاصد الإرسال، وهو هاهنا من حيث ترتيب السير المنهجي في التعرف على معالم الطريق، ومنازل السير يحتل الرتبة الثانية منهجيًا لا مقصديًا؛ إذ لا يعرف الله إلا بمعرفة القرآن، كما أنه لا يمكن أن يعبد الله - عمليًا - إلا باتباع رسول الله، وإن شئت فقل: معرفة الله وتوحيده هو غاية الغايات، ومنتهى الخطورات، ولكن أولاها قطعًا وإنجازًا هي معرفة القرآن، فإذا أنت عرفت ما القرآن؟ وبدأت تعرف من مأذبة الله؛ وجدت الله جل وعلا أول المقصاد التي يدعوك القرآن لنعرفها.
فلا ضمير إذن أن يكون هذا البلاغ: ( التعرف على الله ) من حيث هو مرسل الرسالة قد جاء ( ثانيا ) بهذا الترتيب التعليمي، بعد ( الأول ) الذي هو معرفة الرسالة نفسها، وتحقيق التوصل بها، وإلا فلا صراط ولا سير ولا هدى، وقد بينت لك أن معرفة الله تعالى - من حيث الترتيب المقاصدي - هي أصل الأصول ومنتهى الوصول، فليكن إذن.
في التعرف إلى الله والتعرف به

أسأل نفسك: هل تعرف المرسل؟ أو بعبارة أخرى: هل تعرف الله؟

هذه خطوة أولى، لا بد منها لقراءة الرسالة الربانية؛ ذلك أن أول مقاصد القرآن هو تعرف الناس بالله، بالتكلم بالقرآن؛ ولذلك جاء تعرف الله لذاته سبحانه، بأسبابه الحسنى؛ مباشرة بعد التنبيه على عظمة هذا القرآن، كأنه قال لك: اعرف القرآن أولًا لتعرف الله، أو ليس هو تعالى التكلم بالقرآن؟ قال جل جلاله يصف ذاته: "لِوَأَرَنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جِبَلٍ أَرْوَابِهِ، حَسَنًا مُّصَدِّقًا بِنَّ حَسْبِيَّةِ اللَّهِ وَهَذِئَلَا الْأَمْثَلَ نَصْرُهَا لِلَّدِينِ لَعَلَّهُمْ يُنْفِكُونَ، أَوَلَوْ أُرِيدَ اللَّهُ أَنْ يُكَشِّفَ الْمَكْتُوبَ مِنْ شَأْنِهِ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغُمْوَى وَالْمِثْقَالَينَ، وَلَهُ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ابْنِيَّ الْمَهْدِ، الْمُهَيْثِرُ الْمُضْجِّعِ، مُسْبَحُ
من أنت تعلم أن هذا الإنسان الذي وجد نفسه
فجأة - في هذا الكون الفسيح، الممتد عرضه إلى حدود
الغيب المجهول.

كون عجيب وغريب. لا يستطيع الإنسان المعاصر رغم ما
اكتسب في مجال العلوم الكونية والفلسفية والطبيعية، من
معارف؛ أن يسير أوراقه الهشة، بل هوا هو ذو ما يزال واقفًا
on شاطئ الكون ينظر في حيرة: أين ترسو حدود الضفة
الأخرى؟

فها المجرات والنجوم والكواكب وأفلاكها وفضاءاتها
جميعاً - ما نرى وما لا نرى - إلا بطن السماوات السفلى,
الممتدة من تحت سبع سماوات! كما قال الله تعالى في القرآن:
"إِنَّ رَبَّنَا لَهُمَا ذَئْبَةٌ مُّبَيِّنَةٌ لِّلْكَوَارِكِ" [الصفات: ۶]، وما الأرض
من ذلك إلا كحلقة في فلأة! وأنا بباقي السماوات كذلك ما
لا سبيل إلى إدراكه إلا بالإبصان!

وتتبتع الحياة في الإنسان. ليسى في الأرض وينظر إلى
السما، يتأمل ويدرك لبدرك في نهاية المطاف ألا حل هذا
اللغز الذي يطوق ووجوده إلا برسالة تجنب من عالم الغيب،
تخبره بسر وجوده، وسر الوجود كله من حوله، أرأيت أن لو لم تأت أي رسالة؟ كيف يكون خرجه من هذه الظلال؟ سل نفسك هذا السؤال، وتأمل!

ثم تأتي الرسالة من رب الكون إلى هذا الإنسان. وكان أولى به أن ينظر - أول ما ينظر - إلى مرسلها، ويسأل - أول ما يسأل - عن مصدرها؛ حتى يتحقق منه قيامًا. ذلك أن الإنسان عندما يتواصل عادة بأي رسالة أرضية بشرية، فإنه ينظر بادئ النظر إلى اسم المرسل من هو؟ حتى إذا استقر في ذهنه اسمه قرأ الرسالة حينئذ؛ لأنه على قدر المرسل عند المرسل إليه تكون قيمة الرسالة، ولقد علمنا أن الإنسان إذ تصله رسالة من محبوب أو مرهوب، يقرأ خطابه بروية وإيمان، حتى إن الأم الأمية التي تلقي الرسالة من ولدها، المسافر في أرض الغربة النائية بعيدًا، تكلف من يقرأ لها الكلمات، فنستمع لها استماعًا وتنصت إنصاتًا، وتراها - وهي المرأة الأمية - تصيح السمع للكليات الفصيحة، تنقلها تخيلًا بالوجدان، وإن لم تفهم معناها الدقيق على التحقيق، فتجزز رأسها بالقبول لكل ما قال الحبيب!

وتأتي الرسالة من رب الكون، ولكن قدما نوليها ما تستحق من اهتمام، مع أنها تجينا عن لغز الحياة من حولنا، ولغز وجودنا فيها، فلا نحتفي بالقرآن رسالة الله إلى العالمين. عجبًا، عجبًا!
وإذن؛ دعني أبدأ لك بالدعاء فأقول: إنا – مع الأسف – لا نعرف الله!
نعم، إن وضع المسلمين اليوم يؤكد هذه الحقيقة المؤسفة، تقول كيف؟ إليك البيان:
أما المعرفة بالله فدرجات ومراحل، وما أحسب هذا الشرود الرهيب عن باب الله في هذا الزمان؛ إلا دليلًا قاطعًا على الجهل العظيم، الذي يكيل الناس أن يبحثوا عن رهبهم الذي خلقهم؛ مما يصنفنا دون أدنى مراتب المعرفة بالله، تراحينا عن سلوك طريق المعرفة به في الرخاء، فيفيتنا هملاً أو لقي في مزبلة التاريخ! ويقق وصية رسول الله ﷺ فينا دون وفاء، فكان لها مفهومها المخالف في واقعنا: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) (1).
لاشو كان الناس يعرفون الله حقاً؛ لرأيت الحال غير الحال؟ ولرأيهم يسابقون في أداء حق الخالقية، وبيان ذلك بالمثال التالي، ولا مشاهاة في الأمثال:
إذا قدر الله أن يكون إنسان ما جاهلًا بالديه - لسبب من الأسباب - كليهما أو أحدهما، لكنه نشأ محتضنًا بحضن بعض المحسنين، حتى شتب وكبَر ثم اكتشف الحقيقة: وهي

(1) رواه الخاكم، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي، وعبد بن حيدر، وصحبه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: (٢٩٦١).
أن هذا الذي رباء ليس أباه، وأن هذه التي أرضعته ليست أمه التي ولدته؛ فإنه حينئذ يدخل في غربة شديدة، قد تذهب بعقله كله، أو بعضه، إلا أن يعتصمه بالله، والسبي في ذلك أنه فقد المعرفة بمن كان له سببًا في الخروج من عالم القدر إلى عالم الوجود، ودخل في جهل عظيم ببنبه وأصله، وانقطاعت بين يديه سلسلة سنده التي تربطه إلى شجرة المجتمع الإنساني الذي يعيش فيه، وهنا - بصورة تلقائية لا إرادية - يدخل في سلسلة من البحث والأسئلة في كل مكان، وحيثا اتفق، يسأل سؤالًا واحدًا: من أبي؟ أو من أمي؟ سوالان يؤولان إلى معنى واحد: هو من أنا؟ إن البحث عن الذات فطرة في الإنسان، ولن تعرف الذات إلا بمعرفة سبب ووجودها، إذ المعلومات مرتبطبة بالعلم ووجودًا وعندما، ومن ثم جهلًا ومعرفة، وهنا يذكر حديث النبي، في قصة غضبه من كثرة أسئلتهم الممتعة أخرج الشيخان عن أنس بن مالك، في حديث طويل، أن رسول الله قام فيهم خطيبًا، فكان مما قال: من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه! فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، ما دمت في مقامي هذا! قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول الله يقول: سلوني! فقال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مدختي يا رسول الله؟ قال: النار! فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟
قال: أبوك حذافة! قال: ثم أكثر أن يقول: سلوني! سلوني!
فبرك عمر على ركبيه فقال: رضيحة بالله رباً، وبالإسلام
دينًا، وبمحمد رسول الله، قال: فسكت رسول الله حين
قال عمر ذلك، ثم قال رسول الله: أولى والذي نفس محمد
بده! لقد عرضت على الجنة والنار آنفة، في عرَّض هذا الحائط،
فلم أر كاليوم في الخير والشر! »(1).

فتأمل هذا المشهد: كيف لم يجرؤ أحد من الصحابة أن
يسأل شخصًاً، إذ رأوا أمارة الغضب عليه ، إلا رجلين:
أحدهما سأل عن مدخله، فأجابه: النار، والعياد بالله!
والآخر انتهز الفرصة - رغم هول الوقف - فقال: ( من
أبي؟) فأجابه النبي : " أبوك حذافة "، إن الإحساس
بانقطع النفس عقدة اجتماعية، سبها الإحساس بالجهل
بالذات الاجتماعي، لا وجوبيًا، ولذلك فقد جاء في رواية
مسلم لهذا الحديث: ( فأنشأ رجل من المسجد كان يلاقي
فيدعى لغير أبيه فقال: يا نبي الله من أبي؟، أي أنه كان إذا
خاضمه أحد من الناس، سبه وعيره بنسبته إلى غير أبيه!
فكان ذلك يحزنه ويعقدقه، فلم يستطيع أن يكتم رغبته الجائحة
في معرفة حقيقة نفسه، رغم ما شهد من رفاهة اللحظة،
وخوف الصحابة من غضب النبي! وكمن شهدنا من
الناس من أنفقت ما أنفقت من الأموال والأعشار من أجل

(1) رواه مسلم. (4/ 1832).
اكتشف والده، أو أي أحد من عشيرته، أو أي خيط - مهما بعد، أو ضعف - من خيوط نسبه، أو من له صلة بذلك من الناس، عساه أن يصله بحقيقة نفسه، ولو توهمًا!

تبصرة:

غريب أمر هذا الإنسان: كيف يجهد لمعرفة حقيته الاجتماعية، ولا يجهد ذلك الجهد وأقصى لمعرفة حقيقته الوجودية!

إن الذي ينصت إلى خطاب الفطرة في نفسه يسمع نداء عميقًا، يترجم الرغبة في معرفة من أسدى إليه نعمة الوجود، ألا ترى أن الإنسان مفطور على شكر من وصله بمعروف؟ بل، إذن لم لا تسأل عمن خلقك؟ لا تسرع في الإجابة! لا تقل لي: إنه أعرف الله فأنا مسلم، فهذا الذي نريد! أنت مخلوق، هذه حقيقة وجودية، فلا أحد منا جاء إلى الوجود بإرادته وقراره، من هنا كان الواجب الأول عليه أن بحث عن الله الخالق، بهذه الصفة، أعني صفة الخلقية؛ لأنها سبب جباهك إلى الكون، وإلا كنت عدمًا، ولذلك كان أول حق لله رب الناس على الناس، وجب عليهم أداءه ابتداء: هو حق الخلقية، أليسوا مخلوقين؟ بل، إذن تعلق بذمة كل مخلوق أن يشكر الخالق، من حيث هو خلقه.
و(الخلق) منفهوم من أغرب مفاهيم القرآن العظيم، ومن أكثرها استعماة على الفهم والإدراك، فهو دال عمومًا على التكوين والإنشاء وإبداعًا واختراعًا: أي أنه خلق الخلق على غير مثال سابق، فتأمل هذه الحقيقة أولًا: (على غير مثال سابق) إنه تعالى قَطَرَ خلقه، وأنشأهم ولم يسبق له في ذلك نموذج يحتذى، فسحاته تعالى من خالق عظيم! فقد كان تعالى ولم يكن قبله شيء، هو الأول بلا بدابة، وهو الآخر بلا نهاية، جل شأنه، وتعلنا جده، ولا إلى غيره. تأمل كيف كان خلق الكون؟ كيف كان العدم - وما العدم؟ - ثم كان الموجود بأمر [كون فيكون] (البقرة: 117).

ثم تأمل كيف كان خلق آدم ﷺ؟ كيف صنع الله من الطين المعفن بشرًا سويًا؟ يفيض جمالًا وحيوية، عجبًا، عجبًا! كيف كانت كتلة الطين في جسم آدم تتحول إلى شرايين، وشعيرات دموية، وغطاسًا وحليًا طريًا؟ عجبًا، عجبًا! كيف تتحول الصلصال في حاجره ﷺ بصرًا إبريق، ويشع بنور الحياة، ويرى الألوان والأشياء، ويسيل بالدموع فرحًا وحزناً؟ عجبًا! عجبًا! كيف تحلق التراب في حجمته دماغًا مائعًا مارجًا؟ متكونًا من ملايين الخلايا اللطيفة الحساسة، تحري شعيراتها بالدم الدافق، وتحتر ملايين المعلومات والذكريات، وتأهب للتفكير في أدق الخطرات والنظرات؟ عجبًا، عجبًا!

ثم تأمل كيف جعل من الطين والماء نباتًا جيلًا، فصارت
لله أزهار تلال الأنف عبئًا أخاذًا، وثماراً تلال القلب بجهة وجالًا؟ كيف خرج عنقود العنب الطري الندي، من عود خشى وما طينى؟ ثم كيف خرج الوليد من بطن أمه، من بعد ما عجل في أمر الله من ماء مهين، ماء نكرهه فطرة، ونعتضل منه، ماء وسخ، وما حوله وسخ، وطرائقه وسخة، فخرج منه طفلاً أو طفلة تشع بالجمال وتندفب بالحياة؟ عجبًا! عجبًا! تمامًا كما أخرج الله اللب من بين فرث ودئد شرابًا صافي البياض لذينى. تذكر قوله تعالى: "وإن لزهو في الأ습ار لزهو وقديم تدريجًا من تدريج". ومبنى فتى ودئد بئسًا خالصًا سلبيًا ليقينين. وين تمررت التخييم والألثفاء نمذجون وندن سكراك ورفقًا حسنًا إن في ذلك لا يدَّلَّ أنبوب يلعقون.


قال: "أمَّن يُنْفِقُونَ كُنْ لِأَصْحَبٍ أَخَّافُونَ؟" [النحل: 17]. وقال: "إِنَّ أَنَا أَنْزَعُوهُمْ إِلَىٰ سِلْسِلَةٍ عَرَجَتْ بِهَا الْأَلْوَاحُ لَيْتُوا هُدًى بَعْدَ كُلِّذِكْ فَكُلُّ مَا كُتِبَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا.

فَكَأَيْنَ هُوَ الْقُلُوبُ غَيْرُ غِيرٍ؟ [الحج: 73].

وهذه حقيقة قرآنية كبيرة، تترتب عليها أمور كبيرة في حياة الإنسان، وجدًا وعدها: ذلك أنه كله نادي الله الناس في القرآن والاستجابة لأمره التعبدي، ناداه من حيث هو خالقهم، هكذا بهذه الصفة دائيتها، وهو أمر مهم فيها نحن
فيه من طريق المعرفة بالله، أي أنه تعالى يسألهم أداء حق الخالقية، هذه الصفة العظيمة لذاته تعالى، التي بنا كنا نحن الناس هنا في الأرض تنفس الحياة.

تذكير قوله تعالى: فَّبَيَّنَّا لَكُمُ الْحَقَّ وَمَا عَلِمْتُمُّ إِلَّا مَّا كَانَ مَعَنَّا" [البقرة: 220].

وتذكير قوله تعالى: فَّبَيَّنَّا لَكُمُ الْحَقَّ وَمَا عَلِمْتُمُّ إِلَّا مَّا كَانَ مَعَنَّا [النساء: 1].

هتان آيات كلّيات من القرآن العظيم، تعلق الأمر فيها بالعبادة والتقوى، وما في معناها من النظام في سلك العبادين، وفلك السائرين إلى الله رب العالمين، إثباتاً لحق الله من حيث هو خالق لشجرة البشر، ولا يفتا القرآن يدّكر بهذه الحقيقة، باعتبارها مبدأ كلّيًا من مبادئ الدين والتدني، وأنها العلة الأولى منه، وذلك نحو قوله تعالى: فَمَّا عَلِمْتُ إِلَّا مَّا كَانَ مَعَنَّا [الدراية: 56]، فكثيرًا ما يرد الناس هذه الآية، ولكن قليلاً جدًا ما يتدبرونها. إنها آية كونية عظمى.. إنها مفتاح من مفاتيح فهم القرآن العظيم، وباب من أبواب معرفة الروبيوية العليا، تأمل قوله تعالى:

"فَمَا لَكُمْ فِي الْقَرْآنِ لَمْ يَنْفِعْهَا وَلَكِنْ خَلْقُهُمْ أَطْوَارًا [النور: 13]،

انظر كيف ربط حقه تعالى على عباده بمبدأ خلقهم أطوارًا..
فكلما ازداد الكفار تعتقد ازداد القرآن إفهامًا، في بيان تفاصيل الخلق، فتلك حجة الله البالغة إجمالًا وتفصيلًا.

تدبر معنى هذه الآيات واحدة واحدة. قال في حق الكافر الذي أنكر البعث على محمد، فجاء بطحين عظام مية نخرة، ونفخ فيها فتطاير غبارها من يده. فاستهزأ متسائلًا بما حكاه عنه القرآن الكريم، قال: \( \text{وَضَرَّبَ لَنَا مَنَّا} \) وَتَبْيِينًا خَلْقَهُ. قال من يبني الله في وَوْهُ رَيْبُهُ، فيَّ يَبْيِينُهَا اللَّيْدَى. وأضاؤها من مَّتِّى وَهْوَ يَكْنِي خَلْقَهُ عَلَيْهِمْ. الذي جعل لك من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ تَآُرُّ جَانِبَ يَوْمَ يُؤْتُونِ أَوْلِيَاءَ الْيَدِ خَلْقً السَّمَوِّيَّ والأَرْضِ يِقَدِيرُ عَلَى أَن يُحَلِّقَ بِهِمْ بَلَّ وَهُوَ خَلْقُ العَلِيمُ \( \text{بَسْ: ۸۷-۸۸} \).

وتأمل كيف أن تلك كانت هي حجة موسى الذي صنعه الله على عينه. في رده على فرعون؛ إذ تعتن في إكاره، قال تعالى: \( \text{فَقَالَ يَوْمَ يَقْتَلُ الْكَفَّارُ} \) ، قال رَبِّي الَّذِي أَعْلَنَ كُلُّ مَّخْلُوقٍ عَلَيْهِمْ مَّ هَدْيَهُ \( \text{ط: ۴۹} \). إذ تعريف للربوبية وحقوقها في عبارة من أوج العبارات الربانية المسطورة في القرآن الكريم... فتدبر... \( \text{أُعْلِنَ كُلُّ مَّخْلُوقٍ عَلَيْهِمْ مَّ هَدْيَهُ} \) \( \text{ط: ۵۰} \)...

وجاءت الحجة الربانية في بيان الأطرار الموجودة للإنسان أيضًا في قوله تعالى: \( \text{فَقِيلَ إِلَّا أَنْشَرَهُ} \) بِمَنْ أَيَّ مَّخْلُوقٍ عَلَيْهِ، من نَّطْوَاءَ خَلْقَهُ فَقُدْرَةُ \( \text{ثَمَّ الْمَيْلِ الْيَتِّهِرُ} \) وَمَثَّ أَمَامَهُ أَقْبَرُهُ \( \text{ثُمَّ إِدَاسَةُ أَنْشَرُهُ} \) \( \text{عَبْسٌ: ۲۳} \).
وقال في سياق التمهيد لقصص بعض الأنباء، ودحض حجج المتكررين للبعث: 

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأَنْبِيَاءَ مِنْ سَلَتيْنِ مِنْ طَيْنٍ 

ظَلَّتُ جَلَالَتُهُ مُخْتَلِثَةً فِي قَرْرٍ مُّكْبُورٍ 

فِي ضَمْلِِ عَلَاقَةِ عَلَاقَةً عَظِيمَةً فَخَسَّوْا الْعَظَمَاءِ 

فَخَسَّوْا الْعَظَمَاءِ فَخُسِّوْا مَعْطُوفَةً مُّخْتَلِثَةً 

أَنْشَأْنَاهُ لَخَلَقَ إِخْرًا كَفَّارًا لِيُبَارِكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْأَخْلَاقِينَ 

فَخَسَّوْا الْعَظَمَاءِ فَخُسِّوْا مَعْطُوفَةً مُّخْتَلِثَةً 

[المؤمن: 12 - 16] 

تأمل: ما بال هذا البيان والتفصيل لقصة الخلق؟ لولا أنها قضية كونية كبرى، ينبغي عليها ما ينبغي من مصير ووجودي في حياة الإنسان، هذا المخاطب بها ابتداء؟

وانظر إلى هذا السؤال الإتكاري الرهيب، عن الوظيفة الوجودية للإنسان إذ تقترع بمنطقة الخلق، ثم غفل عنها وتناساها، اقرأ وتذكر جيدا، وأقرأ وأعد القراءة مرة وأخرى؛ لعلك تبصر. قال جل جلاله: "أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذَّنُوا لِلْأَرْضِ وَأَذَّنُوا لِلَّهِ وَأَذَّنُوا مَعَ اللَّهِ الصَّرَّاحِ، لأَشْتَهِيَ عَلَى الْأَرْضِ وَأَشْتَهِي عَلَى اللَّهِ إِيَّاهُ، وَلَا أَشْتَهِي عَلَى أَيُّهُ شَيْءًا مِّن شَيْئٍ (البقرة: 30 - 40].

وكم كانت تلك هي حجة القرآن في الدعوة إلى العبادة، وإثبات حق الخالقية الله الواحد القهار؛ كانت هي عينها حجته في الدعوة إلى التوحيد ونفي الحق الويهي للشركاء، وذلك كيا في قوله تعالى: "قُلْ لَيْنَ أَنْ يَكُنْ مَثَلُهُمُ الْخَيْرُ ۖ وَلَيْنَ أَنْ يَكُنْ مَثَلُهُمُ الْخَيْرُ، وَلَا نَفْعَ مِنْ شَرِّكَاهُمْ مِنْ يَفْعَلُونَ مِنْ فَعْلٍ، ۖ وَلَا مَثَلُهُمْ مِنْ مَّوْعِظَةٍ، وَبَشَّرَيَّةٌ إِنَّكَ مَن فَيْلِكَ" [الروم: 36]، وقال: "أَيْتَكُونَ" مَا...
لا يُنظَرُ شياً وَمَا تُغَلِّبُونَ [الأعراف: 191]، وقال: {أَفَلَيَتَّنَا كَمَّكُمْ لا يُنظَرُونَ} [النساء: 17]، إنه قول فقيل جدًا، فتبدد... ثم أبصر!

ومن أثقل الآيات القرآنية، وأعمقها دلالة على الموقع الوجودي للإنسان من الخلق؛ قوله تعالى: {هَلْ أَنَّ عَلَى الْإِنسَانِ جِينٌ مِّن الْخَيْرِ لَمْ يَكْنِ شَيْئًا مَّذْكَرًا} [الحج: 40]، فإن خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمضت بنا تجلتها عينوًا صريرًا {إِنَّ أَمْشَأَ بِنَا تَجْلِهَا} [الحج: 41]، وإنها كفروة {إِنَّا كَفِرْنَا} [الإنسان: 1]، فإنها كفرنا إليكم كفراء، سلسلةً وأغلثًا وسريعًا {إِنَّ الْأَبْرَزَ بِثَبْرُوبٍ} [الإنسان: 50]، ولنا مع هذه الآية وقفة تدبر آتيه بحول الله... إلا أن المهم الآن أن نثبت لك أولًا؛ أن (قضية الخلق) تمثل مفتاح فهم الرربوية والمعنى الوجودي والوظيفي للإنسان، ولولا خشية الإطالة ليبين لك من خلال كل سورة القرآن بدون استثناء؛ أنها المبدأ الكلي الذي على أساسه خاطب الله الإنسان بكل أمر وشيء، بل إنها تمثل البنية الأساسية خطابه، الذي عليه يتفرع كل شيء، مما قرره في العقيدة والشريعة على السواء.

- ولتبسيط الأمور؛ ننطلق عمليًا من آتين ما أوردننا من كتاب الله نجعلها محور قضيتنا، وننشر في ضوئها كل الآيات الأخرى؛ نظرًا لشمولية البيان فيها، أو لغوصه إلى أعمق ما في مسألة الخلق من أبعاد كونية.

فأما الآية الأولى فقوله تعالى - مما سبق إيراده - من سورة

- فخلق ما في الأرض جميعا كان من أجل الإنسان بصريح عبارة القرآن، ثم كان خلق السوايات بناء فوق الأرض سقفا لها، "سماوه معلوما". [الأبياء: 22]، وكان بعد ذلك خلق الإنسان، ثم سخر كل ما بينهما لخدمته: "أولئك أن لهم به سحر لكم ما اثم السمور" وتما في الأرض وأسعهم علىكم يعمه. ظهرة وباطنة". [لمية: 20]، وقد مهدت له كل أسباب الحياة والعمران، إنه تدير رحيم، وتكرم عظيم لهذا الإنسان، من حيث هو إنسان، كما قال
التعريف إلى الله


فالغالب الكوني كله في خدمة الإنسان خلقًا وتسخيرًا.

ومن هنا كان الشرك ظلًا عظيماً؛ لأن الله هو وحده الذي خلق، وبهذا المنطق وجب أن يكون هو وحده الذي يعبد، وأي إخلال بهذا الميزان يكون ظلًا كبيرًا، وهو قول الله ﴿إِنَّ الْمَيْرَانِ لَظُلُومًا عَظِيمًا﴾ (الफاتحة: 13)، وبهذا المنطق أيضًا نقم الله على المشركين، كما سبق من آيات من مثل قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ كَمَا رَٰبِطَانَا وَمَا يَكْفِرُونَ﴾ (الأعراف: 191)، وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَن يَتَّخِذُونَ كَمَا نَأْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: 17).

نصيرة:

إن جماع الأمر في هذه النصوص كلها أنه تعالى حَلْقَنا وحَلْقَ لنا، هذا مبدأ قرآني كوني عظيم وجب تدبره.. وهو ما سميناه ب: (حق الخالقية) فتأمل!

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى - مما سبق ذكره أيضًا - من سورة الإنسان: ﴿هَلَّ أَنْ قَالَ الْإِنسَانُ ۖ يَمَنْ يَنْذُرُهُ ثُمَّ يَكْسِفُ﴾.
تمامًا مذكورًا (۱) ألا خلقنا الإنسان من طينٍ، أنشِئنا بِنْسِيَاءٍ، مُعَلِّمنَا سَيِّمَعاً بِصِبْرٍ.
(الإنسان: ۲۰۲). وإنها لمن أعظم الآيات القرآنية الباهية! أي تأمل القلب هلمًا ووجلًا، تدرُب معي كيف أن الإنسان داب على التذكير والتفكير في الزمان، من عمره الفردي والاجتماعي، سواء تعلق ذلك بالماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولا شيء بعد ذلك.

والمقصود بالعمر الفردي، وحدهة العمر المعروفة بالنسبة لكل فرد من الناس في نفسه، فالإنسان في هذه الحالة يفكر بطبعه في الماضي، وهو التذكر والذكربات، ويفكر في الحاضر وهو هم المعاش والحياة اليومية والأعمال الحالية، ويفكر في المستقبل وهو التخطيط والتدير للفت الأيدي، وهو ما يجدوه من حياته طول الأمل والطموح، وهو على هذا حتى يموت، هذا هو الإنسان من الناحية الزمانية.

وأما العمر الاجتماعي فالمقصود به التفكير الجامعي في الماضي، وهو علم التاريخ الذي قد يدرس فيه الإنسان مرحلة ما قبل ماضيه الشخصي، لكنه ماضي الإنسان الاجتماعي على كل حال، كما أنه قد يفكر في زمانه الحاضر والمستقبل، وهو شأن مؤسسات الدولة والمجتمع في التخطيط والتدير السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام.

ويكون الإنسان في جميع الأحوال المذكورة إنما يفكر في شيء واحد هو (أنا)، بمعناها الفردي والاجتماعي. والعجيب
في الآية المذكورة أنها أرشدت، بل أيقظته بأسلوب التنبه إلى التفكير في مرحلة ما قبل العمر. وهو مجال يندر جدًا أن يطرق بالفكر البشري، على المستوى الفردي والجماعي على السواء.

هل سألت نفسك مرة: أي كنت أنت بالذات: ( فلا ن) ابن فلان، أو فلانة)، قبل أن يتزوج أبوك بأمك؟ سل نفسك إذن؟ أو أي كان الإنسان - بالمعنى الجامع - قبل أن يخلق الله آدم؟ وللتبسيط أبق في السؤال مع نفسك فقط، وتفكير!

تذكر تاريخ ميلادك؟ قبل ذلك بسنة، أي كنت؟ وماذا كنت؟

تلك مرحلة ما قبل العمر.. فكيف تفسرها؟ وكيف تتصورها؟ هل أنت على الأدنى حين بنى الله آدم ثم بُنْيَتَا كَذَا كَذَّابَٰرٌ (الإنسان: 1)؟ إنك لن تستطيع تصور شيء ولا تتخيله؟ لأنه عدم، والعدم لا يمكن تخيله، إذ لو أمكن تصوره - حتى ولو بمجرد الخيال - لكان من الممكنات. وعلم ذلك غير ممكن إلا الله العليم الحكيم، فهو وحده يَكِيِّ غَيْبِهِ (القرآن: 29).

المهم هاهنا عندنا أن تدرك أنك لم تكن ثم كنت. وهذا فضل عليك من الله الذي قال لك: كن! فكن! أي خلقك
ولم تكن شيئًا مذكرًا. لا شيء أنت حينئذ، لا ذكر لك، واللاشيء لا اسم له ولا مفهوم ليذكر، لا في الممكنات الشعبية، ولا في المدركات الذهنية.

أليس يمكن مكنًا ألا تكون؟ بل، لأن الله خلقك بإرادته، وبمشيئة تعاله، وكما يشاء للشيء أن يكون فقد يشاء للشيء الآخر يكون، فهو سبحانه يصرف في أمره وكونه كما يشاء ويختار. وما ينقص من كون الله العظيم لو أنت أنت - يا فلان بن فلان - لم تكن فيه؟ طبعًا لا شيء، لا شيء. هذا البشر ممتد نسله، طولًا وعرضًا، يملأ الأفاق الأرضية في كل مكان.

ثم كنت يا صاح برجمة الله وفضله، كنت بعد ذلك شيئًا منذورًا، فتفكر، وتدبر: "هل أنت على الإنسان حين ينifecycle يد النور لم ين生命周期 شيئًا مذكورًا؟" [الإنسان: 1]، إن هذه الآية العظيمة هي من أغلب الآي القرآني حملًا على الإنسان! والقرآن العظيم لو تدبرت - فقيل كله، قال تعالى: "فأنت لنا أولاً هذا الشرمان على جيلي أن أقرأته، خشي الصادق من حسبي لله وآيات الأصل نصريها إلى الناس لعلهم يفكرون" [(الشعر: 21)، وقال سبحانه: "إذا سُلِق في عينك قولًا فتبَتل في النزلة" ] [المزمور: 5]، وثقل آية الإنسان الذي لم يكن فكان، راجع - فيها هو راجع إليه - إلى ما يترتب على الوعي بهذه الحقيقة من أعباء الحق الإلهي العظيم، حق الخالق، أليس لم تكن ثم كنت؟ بل، إذن تعلق بذمتك حتى الذي كان له الفضل
وحدثه في ذلك، الذي خلقك، ومن هنالك جاء قوله بعد في السورة مباشرة: "إنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَّطْفَةٍ أَشْجَعَ بَنِيْهِ فَجَعَلْنَهُ سَيِّئًا بِصِيَارَةٍ" (الإنسان: 2) ، وعلى هذا الوزان من الاعتراف بهذا الحق، والشكر له أو عدمه، كانت الجنة والنار، وتفرقة أصناف الخلق بينها أبرارًا وكافرًا، كا هو في تتمة الآيات من سورة الإنسان، وغيرها من آي القرآن كثير.

تبصرة: حق الخالقية إذن هو مفتاح المعرفة بالله:

إن هذا الحق بقدر ما هو متعلق بمذمة الإنسان، لربه الذي خلقه، فإنه يستفيد منه معنى عظيمًا لوجوده، إن إحساسه بوجود هذا الحق عليه يخرجه من الهم الوحيد، الذي ضاعت فيه أفكار الكفار من العالمين، أو بعبارة قرآنية: يخرجه "فَمَنْ أًظُلِمْتُ إِلَّا الْئُورَةُ" (البقرة: 207). وأي ظلام أشد من التصور العبشي للحياة! أو كًا قالوا: ( إن هي إلا أرحم تدفع وأرض تبلع!) فتأتي نفسه يعيش الإنسان هذه الحياة، وهو يرى أنها غايته إلى العدم المطلق والفناء الدهر، الذي ما بعده من حياة؟ فأي لذة يجدها في متعها وهو يعتقد أنها إلى زوال قريب؟ ذلك ما يقوده غالبًا إلى الشره المتوحش في تناولها، أو إلى العزوف القليل ثم الانتحار! ألا ما أشد وحشة الكفر والضلال! فالحمد لله الذي عافانا مما أبتله بآخرين.

إن معرفة الله من ها هنا تبدأ؛ الشعور بالفرح به تعالى ربي خالقًا، والأنس بجماله حتى إنما رحيقًا، فيمتلى القلب شوقًا
الإله تعالى، ثم تنشئ الجوهرة للسير إلى بابه الكريم، والعروج إلى رضاه، عبر مدارج السالكين، ومنازل السائرين، فيجد الإنسان الآنس كل الآنس كليا ازداد معرفة بالله جل جلاله.

وإنها مدارج المعرفة به تعالى أن ينطق المسلم من توحيد الروبية، الذي يفتحه باب على العباد أول ما يفتح من الشعور بحق الخالق كما قررناه، ذلك أن الرزب إنها هو رب من حيث هو ملك للمرربوب، ذلك معناه العلم في اللغة وفي الشرع، قال ابن منظور: (الرزب: هو الله عزوجل، هو رب كل شيء: أي ملكه، ولا الروبية على جميع الخلق، لا شريك له، وهو رزب الأرباب، وملك الملوك والأرواح). ولا يقال الرزب في غير الله، إلا بالإضافة (...) وربة ربته: رزب: ملكه (1).

فرب الدار: ملكها، وربة البيت: سدته، ورب السيارة: صاحب السيادة عليها. إلا أن (الملكية) الخلق، إلاها تقع في الواقع على من يملك أصل الاختراع والإبداع، إنشاء وتطوير. ذلك هو الملك الحقيقي للشيء، وذلك هو الله في روبيته للكون والخلق أجمعين. إنه ملك كل شيء خلقا وإبداعا، وزيادة ونقصا، وإحياء وإماتة، بدءا وإعادة، وعندما ونشأرا.

وما كان ذلك كله ليكون لولا أنه هو الذي خلق.

ومن هنا كان أول وصف لذاته تعالى، نزل على محمد ﷺ،  

(1) لسان العرب، مادة: (رزب).
في بدء تعريفه بالله تعالى: "إِنَّ أُمَّيَّةً رَبِّيَّةٌ الَّذِي خَلَقَ (الملع. 1) فَهُوَ الْرَّبُّ إِذنًّا، وأول ما وصف به نفسه تعالى أنه: "اللَّهُ خَلَقَ" ؛ لأن الربوبية إنا ترجع في حقيقتها إلى هذا المعنى كما بيناه آنفا. ومن هذا اطراد هذا المبدأ في القرآن الكريم، حتى لا تكاد تخلو سورة منه، بدءاً بالفاتحة: "الْحَكِيمُ الَّذِي يُبِينُ الْكَتِبَ"؛ حتى سورة الناس: "فَهُوَ أَعْلَمُ فَرْبُ الْخَلَاقِينَ". فالقرآن كله إذن قائم على ترسيخ مفهوم الرب في قلوب المربيين، وعسى أن تستجيب فطرهم لأداء حق الربوبية، توحيد الألوهية عبادة الله رب العالمين.

وخلاصة الأمر: أن الخالق ملك، وأن الملك رب، وذلك أنه تعالى خلق فملك، وملك فرب. فهذه معان بعضها يجل على بعض، حتى كان لفظ ( الرب ) جامعا؛ فجمع بذلك كل أوصاف الكيال والجلال والجلال، من الأسماء الحسنى والصفات العلي.

وإلى آخر الآية الآن في ذلك إلى القرآن العظيم، حيث يقول الله تعالى معرفاً بذاته سبحانه: "فَهُوَ أَلَّمْ يَكُونَ الرَّبُّ الْمُصَوَّرُ الْأَوْسَمَةُ الْحَسَنَىُ (الحمض. 24) ، فقوله تعالى: "فهو الله" جملة اسمية من مبتدأ وخبر، فيها معنى الجواب عن سؤال تقديره: سؤال السائل عن الرب (من هو؟) ، فقال: "فهو الله الاله الرب الرب الرب الموصور (الحمض. 44) ؛ أي ( الرب هو الله) ؛ لأن الضمير ( هو ) لا بد أن يعود على معتقد سابق، كما قال الله حكايته حوار فرغون مع موسى وهارون: "فَأَلَّمْ نَزِدْكُمَا
فبالأسماء الحسنى هي مدخل التعرف بـ الله ربًا، وهو توحيد الروبية، كما في هذه الآيات، وهي كذلك مدخل التعرف به إلّا، وهو توحيد الألوهية، كما في قوله: "وبه َمَنْ تَعْلَمْ مِنْ أَعْلَمِ ِهِ" من سورة الأعراف: "فَلِلَّهِ َمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْحَكِيمُ َالْقَرِينُ". [الإعراف: 180].

ومن هنا قال رسول الله ﷺ في أسماء الله الحسنى: «إن الله تسعة وتسعين اسمًا - أعطى مائة إلا واحدًا - من أحرصها دخل الجنة. إنه وترب يحب الوتر» (1). وفي رواية: «من حفظها دخل عليه.» (1) متفق عليه.
الجنة؟ يعني: إن الله تسعة وتسعين اسمًا. وفي الحديث دالة على عدم حصر أسمائه في هذا العدد، لقوله: (أعطني)، وهذا لفظ ظاهره دال على أن له تعال غيرها مما لم يعط وعسته به في علم الغيب عنده، كما هو معروف في السنة. فقد أعطى ما أعطى ومنع ما منع. لحكمه هو جل وعلا يعلمها.

وزاد الترمذي والحاكم وغيرهما في الحديث تفصيلاً في عد هذه الأسماء، نذكرها جميعًا لبركتها وخاجتنا إليها، فعن النبي ﷺ قال: «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهين، العزيز، الجبار، المكرب، الخالق، البارز، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القاضي، الباست، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكّم، العدل، اللطيف، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيف، النسيم، الحسوم، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، النور، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتنين، العلي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعي، المحيي، المبت، الحي، القيام، الواعظ، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقترن، المقدّم، المؤهّر الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المعتلى، البار، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقطط، الجامع، الغني، المغني، المنع، الاضرار.»
التعرف إلى الله
 الناعف، النور، الهدى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور» (1).

قلت: إن جماع توحيد الروبية يؤول إلى إثبات الأسئلة والصفات الله رب العالمين، إثبات إيان وتسليم، لا ينحرف به تأويل، ولا يزعم به تعطيل، ولا يخسره تشبيه أو تجسيم. فهو تعالى {ليس كمَّ شيء ﷺ وَهُوَ الْشَّيَاطِينُ ﷺ} [النور: 11]. فلا ينسب شيء من الخلق والتدبير في الكون إلا له سبحانه، وحده دون سواء، ولا يعتقد شيء من التفع والضر والعطاء والمنع والحياة والموت؛ يصل الكائنات من غيره تعالى، فكل الأسئلة الحسنى والصفات العلية، على تفرده سبحانه بمقتضياتها من الفعل والأمر، لا دخل لأحد من خلقه في ذلك إلا بإذنه تعالى، تدبر—ثم تدبر—قوله تعالى {أَلَآ إِلَى الَّذِي أَتَأْخَذَ الْقِيَامَةَ لَا يُؤْتَىُ وَلا يَمْكُرُنَّ الَّذِينَ كَانُوا فِي السَّمَاءِ وَمَا أَمَامُ الْأَرْضِ مِن ذَا الْغَدِى} [اليمامة: 10]. الأشعراء والأس액تواء حفظهم وإليهم السماحة [11] (الفرقة: 255).}

ذلك هو توحيد الله في ربوبية أي في مالكيته للكون وخلافته له، وذلك هو المنطلق السليم، والأساس القويم لتوحيد الألوهية، كما ذكرنا، وبدور تصفية ذلك يكون السير في طريق المعرفة الربانية، والرقي في مدارج الإيان، رواه الترمذي والحاكم في المستدرك.

(1)
لأداء حق الخالقية، حيث إن توحيد العبودية، أو الألوهية
كله لا يخرج عن معنى السير إلى الله رغبة ورغبًا، من حيث
إنه تعالى موصوف بصفات الكمال وآسای الامام، وبهذا
السير تتحقق للعبد رتب المعرفة به تعالى، ويكتب الجليل
من منازل الإيان، ومقامات الإحسان، سيرًا في طريق
عبادته تعالى على نهج السنة النبوية؛ استجابة لقوله تعالى:
۷۰۲ أَعْبَدْ رَبِّي حَتَّى يَأْلَوْكُ الْيَقِينَ { الحجر: ۹۹ }.

وهنا نعود إلى حداث الأسباب الحسن، حيث يتبنى أن قول
النبي ﷺ: ( من أحصاها - أو من حفظها - دخل الجنة ) إنها
المقصود بالإحصاء ( الحفظ ) عينه، كا هو في صحيح
البخاري في ( باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا )، وقد ذهب
أغلب العلماء - كأ سأري بحول الله - إلى أن ( الحفظ ) هنا
هو بمعنى حفظ المتضيات من الأفعال والتصرفات، لا حفظ
العبارات، كأ في قول النبي ﷺ: " احفظ الله يحفظك، احفظ الله
تُبهج تَبَاهِكْ " (1). والقصود بحفظ المتضيات: توقيع كل
أفعالك وتصرفاتك بتفضية دلالاتها من حدود والتزامات.
فمثالًا إذا انطلق العبد في طلب رزقه، واكتساب قوته
فإنها يفعل ذلك باسمه تعالى: ( الرزاق )، ومعناه أن يعتقد
ألا رزق يصل إليه إلا ما كتب الله له، ثم ألا منع له منه وقد

(1) روا أحمد والترمذي والحاكم بسنده صحيح. ن. صحيح الجامع الصغير (۷۹۵۷).
كتبه الله له، ويزن له هذا - إن صح اعتقاده فيه - أن الرزاق الإياني، يبذل كل يوم في تحصيله، فلا يساوم في دينه مقابل مال، عطاءً أو حرمًا، إذ يوجد في معرفته باسم ( الرزاق ) أنه لا منع لما أعطي ولا معني لما منع.

وهذا قصد من مقاصد حفظ ( الاسم ) من أسيائه الحميسي: الثبات على ذلك أمام الفتنة، لا ترحجه المضايقات ولا المناوشات، ولا التهديدات، ولا تذهب به الوساوس كل مذهب، بل يسكن إلى عقيدته مطمئنًا، آمنًا من كل مكره، إلا ما كان من قدر الله، موقفًا أن الله لا يريد به إلا خيرًا. فذلك أمر المؤمن الذي ليس إلا مؤمن، والمؤمن أمره كله له خير كا في الحديث الصحيح؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام: "عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابه ضراء صبر؛ فكان خيرًا له".

إنها عقيدة السلام والإنس الجميل بالله، وبقدر ما تسكن النفس إلى اسمه تعالى ( الرزاق ) يذوق العبد من معنى الحفظ ( جمالاً حميدًا، وأناسًا جيدًا، فتعلو القدم بذلك في مراتب العبودية، وتوحيد الألوهية مقامات أخرى. والربانيون

(1) رواه مسلم.
في (حفظ) كل اسم من أسمائه الحسنى - بهذا المعنى - مراتب ومنازل، وبذلك يمتلئ القلب حباً لجاهل أنواره وجلال إفاضته تعالى، فزيداد شوقاً إلى السير في طريق المعرفة الربانية، التي كانت ذاق منها العبد جديداً ازداد أنساً وشوقاً، فلا تكون العبادة - بالنسبة إليه حينئذ - إلا أنساً وراحة، ولذة في طريق الله، إذ تنشط الجوارح للقترب إليه تعال بالأوقات والصلاة، والصيام والصدقات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات، والدخول في سائر أعمال البر الصالحات. وذلك في أسماء الله الحسنى - من كل ذلك - مسائل تقربك إلى الله سبحانه وتعالى إليه.

هذا هو الفهم الأليق بحديث الأحياء الحسنى، وهو ما ذهب إليه أغلب شراح الحديث عند تعرضهم لذلك; ومن هنا قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: ( وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عدها فقط؛ لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العمل بها، وقال أبو نعيم الأصبهاني: الإحصاء المذكور في الحديث ليس هو التجداد، وإنما هو العمل، والتعقل بمعاني الأحياء والإيمان بها).{1}

وقال أيضًا: ( وهو أن يعلم معنى كلّ في الصيغة، ويستدل عليه بأثره الساري في الوجود، فلا تمر على موجود

{(1) فتح الباري: (226/11) نشر دار المعرفة بيروت: (1379هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي وعمرو الدين الخطب.}}
التعريف إلى الله

إلا ويظهر لك فيه معنى من معاني الأسباء، وتعرف خواص بعضها (...)) قال: وهذا أرفع مراتب الإحصاء. قال: وتمام ذلك أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن; بما يقتضيه كل اسم من الأسباء(1).

ذلك هو الشأن بالنسبة لسائر أسئته الحسنى: الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن... إلخ. فكلها (حسنى) بصيغة التفضيل المطلقة هذه؛ أي لا شيء أحسن منها، فهي تبت النور والسلام والجحال، في طريق السالكين إليه تعالى; بحفظها، وتماماً قلوبهم إياًنا وإحساناً. كما قال النبي ﷺ في الحديث: "إن الله تعالى آثمة من أهل الأرض، وآثمة ركب قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه أليها وأرقبها "(2).

تبصرة:

وهنا هنا للطيفة من لطائف الأسباء الحسنى، ذكرها بحول الله؛ رفعًا للغبش الذي قد يدور بخلد بعضهم، أو مما قد يلقى الشيطان في خاطر العبد الذي لم يندق بعد جال بعض الأسباء، من مثل أسئته تعالى: (الجبار، والمتكبر، والقهر، والمتقم)، إن أول شيء يجب التذكير به أن هذه الأسباء - كسائر أسئته تعالى - قد وصفها الله ﷺ في

1 فتح الباري: 226، 227/11/676.
2 رواة الطبراني، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 2163.
القرآن بأنها ( الحسنى )، على التفاصيل، وفي هذا لطائف كثيرة. فبالنسبة إلى خصوص معايي التكبر والكبرياء والقهر والجبير من أسائه تعالى، فهي ما يشين الإنسان، ويلقي به في دركات الدم والنقص؛ لو أتصف بها، وتخلق بأحوالها، لكنها في ذات الله تعالى جلال وجمال، ونور وكمال، فهي ( الحسنى )، نعم قد ورد الوعيد في حق من أتصف بها من الناس، كذا في الحديث القدسي: قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والظلمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منها قدفته في النار.\(^{1}\)

وي بيانه أن الله ﷺ قصر ذلك الوصف عليه تعالى، ولم يأذن لأحد من خلقه في اكتسابه، وهو وحده يليق به ذلك؛ جلال قدره، وعظمة ملكه وسلطانه، فهو الملك الحق العدل، لا ينافي شيء من ذلك عدله ورحمته، بل إن وصف القهر والجبير والكبرياء في ذاته مصدر رجعة لعباده المؤمنين - وهذا من لطائف المسألة - حيث إن المؤمن حينها ينتبض إلى الله عبدها، فإنه يكتسب من نسبة العبودية عزة ومنعة؛ إذ هو محمي من الظلمة والفجار؛ باسم الله الجبار القهار.
وأنت حينها ترى في الأرض عبدها جاهلاً متكبرًا؟ تدرك بسرعة أنه يحتل ما ليس له، كيف يصدق تجره وكبرياؤه؟

\(^{1}\) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (4311).
وقد قال الله فيه: {وَخَلَقَ الْإِنسَانَ صَيْغَةً} [النساء: 28]، فكثيراً ما ذكرناه ذاك إنما هو صورة من ورق! إنه مرض يلمع، فهو تعبر عن الشعور بالنقص وإزاء كمال حاوله فلم يصله، من الناحية الاجتماعية، أو المالية، أو السلطانية، أو أي جهة أخرى، فقد يكون الإنسان غنياً ذا ثروة طائلة، فإذا تكبر دل ذلك على نقص من جهة أخرى، ربما ظن أن ماله يغنيه من كل وجه، فلذا أدرك أنه لا يسند له حقيقة الكمال، استكر فطغي وتجبر وظلم! إنك أيها العبد المنتسب - بخصوتك وعبدوتك - إلى كرياء الله الحق، تشعر أن الكرياء الذي ينحلي الخلق كذب وافترا، بل مرض يستحق صاحبه الخسارة والإشقاق! تمامًا كما تشفق عن من ألقى بيده إلى التهلكة بالكفر والضلالة، على غرار قوله تعالى: {يَحْتَرِمُ الْيَوْمَ الْعَظِيمَ} [ب: 30]، فأنا الجاهل فقد يرى الجبار من الناس أسداً يزاور في وجه الخلق، وأنا عبد الله فإنها يراه أسداً من ورق، أو دمية (كرتونية) تحكي لعبة الأسد، والتكبر من الخلق هو أول من يشعر - في نفسه - بضعفه، وعجزه، وفشله في أن يندمج في المجتمع، ويتوافق أمام الخلق، وما أصدق قول الشاعر في هذا:

ملائي السنابل تنحني بتواضع
والفارغات رؤوسهن شوامخ
وأنت إذ ترى ما لا يرى الجهلة تستريح... فقد عرفت أنها الكبرياء والجبوضة لله الواحد القهار؛ فكانت بذلك أسماها الحنسى: الجبار والمتكبر والقهار، ونحوها من أسماه الجبال، بردًا وسلامًا على قلوب عباده الصالحين، تبعث النور والجلال، ولا عجب، فهي من ( الأسماء الحنسى ) حقًا وصدقًا. وَقُلْ صَدَقَ اللَّهُ [ آل عمران: 95 ] والله خير الصادقين.

وإن كنا تذوق من معرفة الله لماعات وأنوار؟ يتعلق قلبك به، لأنه إنما تجد الجبال الحق في تلك المعرفة. وقد قال الرسول ﷺ: «إن الله تعالى جبل يحب الجبال »(1)، فمن ذاق عرف، ومن عرف أشتاق، وليس عبئًا أن يكون ضمن السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظلله تعالى: ( رجل قله متعلق في المساجد )(2). ولا يتعلق القلب إلا إذا أحب، ولا يحب إلا من شهد الجبال. وإننا ترى جمال الله عز وجل في شعورك القوي بجمال خالقته تعالى، وكمال قيمته، وحسن إجابته، وكرم رعيته، وقرب رحمته وأنت لفظًا ألجأ في كلمات الله إذ يقول: وَإِذَا سَأَلْتَ عِبَادِي عِنْدَكَ فَإِنَّكُمْ مَهْدُونُ إِلَيْهِ مُهَدُونُ [ البقرة: 182 ].

إن العبد الذي يلقن بمعرفة الله، يفيض قلبه بالمحبة، حبّة

(1) رواه مسلم.
(2) متفق عليه.
التعريف إلى الله

كل شيء، إذ يجد أخوة إلهانية في وجدانه مع كل شيء من الكائنات - عدا شياطين الجن والدنس - فالكل مستغرق في عبادة الله، سائر إليه عبر مسالك المحبة: (سبحَّ لَهُ الْآمِنُون)</p>السنحُ والأضح وَابن فَيْنِمْ أَمْ مِن شَجَرِّي إِلَّا سَبِيحٍ جَيِّدٍ. ويَلْغِنُ نَفْهَهُمْ تَسِيحُهُمْ إِنَّهُ كَانَ عَليٌّ غَفُورٌ) [الإسراء: 44]. ولقد جعل الله لنبيه داود موعزة كشف لبعض ذلك، فكانت الجبال والطير تسبح بتسيحه وتدعو بدعائه، في مجالس تفيض بالنور والجمال، تلتقي على موعد بالغدو والآصال، كما في قوله تعالى: (إِنَّا سَخَّرْنا لِأُبْيَانَ مَعْهُ سَبِيحَانَ الْعَيْنِ وَالْيَزْىَ) [القمر: 19].

إن الكون كله في وجدان المسلم مثل طور داود، مجالس أنس وذكر، تشجره بالأخوة الكبرى، في السير إلى الله عبر أفلاك العبودية: (كَلِّي فِي فَلَكٍ يُسِيحُونَ) [الأنبياء: 33]. وأنت أيضًا يا صاحب تسبح عبر فلك العمر سيرا إلى الله ذي الجلال والجمال، تعرف إليه من خلال هذا كله، إذ تجد سبحةه تجاهك، كلاما ذكرت أو دعوت، متنبأ إليها تعال عن العبودية، وذلك أعظم معنى لوجودك في الحياة. فتأمل! وذلك غاية الغايات من الخلق كذا ذكرنا: (وَمَا حَلَفَ أَلِينَ إِلَّا اللَّهُ إِلَّا يَعْبِدُونَ) [النور: 56].

المعرفة طريق لا تنفع تجلياتها، ولا تنتهي إشرافتها إلا بلقاء الله، حيث يكشف سر السير إلى الله: (وَأَعْبَدُ رَبِّكَ)
العرف إلى الله

حتى يُبِينِيكَ أَلِيْمَتِكَ (الحجر: 99)، وترى هنالك بعين اليقين حقيقة الوجود الدنيوي، من خلال وجودك الأخرى:
وجاءتِ سَكَرَةُ الأَلْوَانِ يَلْقيَّ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْهَا مُيِّنِيَّةً وَفَيْغَةً في الصُّورِ
ذَلِكَ يَمَّمُّ الْوَعْيَ (20) وجاءتِ كَنْ تَفَنَّى مَعَهَا سَيْنِيَّةً وَفَيْغَةً (21) أَفَلَمْ كَنَّا في
عَمْلِهِ مِنْ هَذَا فَكَرْنَا عَنْكَ عَطُاءً كَقَصْرِكَ أَلِيْمُ حَكِيمٌ (2) [ق: 19 - 22].

إن المعرفة بالله ثمة قلبك أنسا بالله، ثم آنسا بالحياة،
وأنسا بالكون والكائنات، وأنسا بالموت، الذي لن ترى فيه - إذ تقف عليه - إلا موعدًا جيالًا، للقاء جيال، مع
رب جيال. فذوى الإحسان في قمة المشاهدات الإيحانية.
وإنها (الإحسان): أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه
يراك (1). ألا يا حسرة على الناس إذ جهلوا بالله!

حتى إذا وجدت ما وجدت، وعرفت من ربك ما عرفت،
أبت عليك معرفتك، وما فاضت به عليك من جمال الأخوة الكونية؛ إلا أن تسعى بهذا الخير إلى الناس كل الناس.
داعيًا إلى الله ومعرفًا به، لا يمكن لعافر بالله حقًا إلا أن
يكون داعي إليه، وهل يستطيع المهبه أن يكتب من محبه
شيئًا؟ إن الوجدان ليستيق من كتى جمال، تشرق أنوره
على الكون كله! ولا يمكن للنور إلا أن ينبه!

(1) متفق عليه.
التعريف إلى الله

تبصرة:

إن الدعوة إلى الله إنها هي تعريف بالله... فتأمل!

هؤلاء الناس الذين شغلتهم أمواهم الفانية، وأشغالهم الصبيانية، وأحزانهم الطفولية، وألغتهم عن التفكير في حقيقة أنفسهم وحقيقة الوجود من حولهم، إنها هم في هذا المقام الأطفال، لا يدرون ما يضرهم مما يفعلونهم، فهم أحرج ما يكونون إلى من يذيقهم حزناً من حالات المحبة الربانية؛ عسى أن يجدوا شيئًا - ولو قليلاً - مما وجدت;

فيتعلقوا بجمال الله كما تعلقته: ( ورجل قيله مطلق في المساجد )، ويدركوا حينئذ أن للوجود معنى أعظم بملابين المرات مما عرفوا في وعيهم البهيم الساذج.

وبالتعريف بالله تزداد - أنت أيضًا - معرفة جديدة به. فكأنك إذ تسعى إلى تعريف غيرك به؛ تكشف أنك إنها تعرف نفسك به! فعملك ذلك خير الأفعال، وسعيك ذلك أحسن ما في منازل الإنسان من جمال! ( ومَنْ أَحْسَنُ قُوَّةً مِّمَّنَ دَعَّا إِلَى اللَّهِ)[ الفاتحة: 32 ].

التعريف إلى الله والتعريف به كلمة لا تشرحها عبارات، ولا تكشفها الإشارات، ومها سودت لك من ورقات، أو صنفت من مصنفات؛ فإني سأبقى دون مداركك الشاملة على شاطئ الابتداء! وإنها الذي علي أن أبلغك أنها الحلاوة
العرف إلى الله

التي لا تدانيها حلاوة، وليس لي أبداً أن أصف لك المذاق؛ لأن الحلاوة لا تدرك إلا أن تذاق، فلتعرف ما هنالك ذق! وعذرني في هذا كله أن أصف لك الطريق، فاسلك عسى أن تكون من الراشدين!

العرف إلى الله والتعرف به: ذلك هو رأس العلم، وتلك هي زبدة المعرفة، وعليها ينبغي ما بعدها من كليات، في بلاغ الرسالة القرآنية، فلا مبدأ من مبادئها، ولا ركن من أركانها؛ إلا وهو مضمون في المعرفة بالله.

يمكن لك يا صاح – بالتذب وابصبار – أن تجد كل ذلك عنه؛ لأن من وجد الله - كيا في الحكمة المأثورة - وجد كل شيء، ومن فاته الله فاته كل شيء، كيف لا وقد قال الله في بلاغه الحكيم: { فلا تلقي الله رجلاً حتى يمسك عنده ضميره} {يونس: 32}، ولذلك نوجز ما بقي من بلاغات الرسالة، خصوصاً الكلام في المعاني المفتوحة، ولك في كتبنا المفصلة في هذا ما يعني إن شاء الله(1)، وإنها العبرة عندنا ها هنا إبلاغ البلاغ بأخف ما تدركه الأسباع.

***

(1) ن. ذلك في كتابنا: جمالية الدين.
في اكتشاف الحياة الآخرة

هل تعرف: ما الحياة؟ هذا المعنى اللطيف الغريب العجيب، الذي يوصف به كل كائن حي في هذا الوجود، ما دامت نسمتها الغربية تسري بجسده، حتى إذا فارقت تلك النسمة؛ فارق الحياة، أو بالأحرى فارقتها الحياة؛ فصار ميتاً، ولم يعد معدوداً من أحياء هذا الكون.

مهم جدًا أن تستحضر أن (الحياة) بكل أنواعها وتجلياتها مصدرها واحد: هو (الحي) سبحانه، فليس عبئًا أن نعلمنا الله بأن من أسياحه الحسنين هذين الأسمين العظيمين: (الحي) و (المحي)، فهو الحي يبناه سبحانه، المحي لغيره، ولا حياة لأحد سواء إلا بأمره. سبحانه وتعالى من رب عظيم، وله الحمد في الأولى والآخرة.

وقد وصف الله تعالى (الحياة) في القرآن الكريم بصفتين
اكتشاف الحياة الآخرة

متبادلتين: الأول: هي (الدنيا)، والثانية: هي (الآخرة).
وذلك نحو قوله تعالى: {أَفَمَا مَنَعَ اللَّهُ مِنَ اللَّهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَلَآ إِلَّا قَلِيلٌ} [النور: 28]، وقوله سبحانه: {فَلَمَّا يَرَوْا الْقُبُولَيْنَ وَيَقُولُوا} [النور: 12].

فأما هذه الحياة الأخرى: الأولى: تنتمي إلى عالم الشهادة، وهي حيانتنا هذه التي نحيا بها، والثانية: تنتمي إلى عالم الغيب، وهي الحياة الآخرة. وقد علمت أن الإيام بالآخرة في الإسلام - من حيث هي (حياة) - ركن من أركان الإيام السنتي، التي وجب على كل مسلم أن يعلمها، ويؤمن بها.

ولنبدأ الآن رحلة التدبر لهذا المعنى في الرسالة القرآنية.

ذلك أنه ما قُرِّن بالإيام بالله شيء - في الكتاب والسنة - مثل الإيام باليوم الآخر، فهو أصل من أصول الرسالة القرآنية، ومقصود من مقاصد البلاغ الإلهي، وما كان ذلك ليكون لولا أن فيه حكمة ما، وهو ما نحاول اكتشاف بعض أسراره في هذه الإشارات بحول الله.

وأما الآيات فلنذكر منها أمثلة، تدل على ما سواها، فذلك في القرآن أكثر من أن يحصى لفظًا ومعنى، ونحوه قول الله تعالى في حق المؤمنين الصالحين من سائر الململ: {إِنَّ الْذِّنَّينَ زَانُوا} [اللذين حَادَوا والصداع والمَدَنَيْنَ من عَامِرٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر}.
اكتشاف الحياة الآخرة

وعمل صحيحاً فلهم أجراهم عند ربيهما ولا تخو في الحق عليهم ولا هم يحزنون (البرة: 26)، وقال عليه الصلاة والسلام في حق المنافقين: فومر الأشباح من يقول إماماً بيت الله وإليه أخرج وماهم يؤمنون (البرة: 8)، وقال في حق أهل الكتاب الذين عرفوا الحق فأسلموا: لنعموا سواء من أهل الكتب أمة فائقة يتلون مائتين الله مائتين آيات الله والهم ينجذبون (يوم يومهم بإلههم وإليه أخرج) (آل عمران: 114)، وقال في سياق التشريعة: ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بإله وليوم الآخرة (البرة: 22)، وقال سبحانه في حق العابدين من عمار المساجد: إنما يعمف مسجد الله من إمامه بالله وإليه أخرج وأقام الصلاة وأعلن الرسالة، وهو يفعل إذ لا الله فحسبه أولئك أئمونهم من الهوىء (التوبة: 18)، وقال سبحانه في التنبيه على التأسي بسيد المرسلين: لقد كان لكم في رسول الله نسخة حسنة (ال автомобиль: 21)، ومعلوم أن مثل هذا في القرآن كثير.

وأما السنة فقد تواتر فيها هذا المعنى بهذه الضميمة: (الإيمان بالله واليوم الآخر)، تواتراً معنويًا كليًا، فمن ذلك قوله تعالى: فمن أحب منكم أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتائقه منبهن وهو يؤمن بالله واليوم الآخر (1)، وقوله: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ومن كان

(1) رواه مسلم.
اكتشاف الحياة الآخرة

يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو لبسكاً (1)، وقوله أيضًا: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس حريرًا ولا ذهبًا (1)", ونحوه في السنة الصحيحة كثير جدًا.

والغابة عندنا إنها هي بيان طبيعة هذه العقيدة في الإسلام، واكتشاف بعض أسرارها، إذ رغم أن المسلمين اليوم يؤمنون باليوم الآخر، إلا أن آثار ذلك في حياتهم قليل جدًا؛ بسبب عدم الإحساس بحقيقته في وجودهم، وضعف السير إليه، خلال آياته؛ لاكتشاف مشاهدته الإيفائية، من خلال مشاهده القرآنية، فهو إذن عدم الإبصار، وهذا عمل إيفاني وجب على كل مسلم أن يسعى لاكتسابه؛ حتى يجد ما وجد الصحابة من هذه الحقيقة القرآنية العظمى، ويلتقط واحدًا من أعظم مضامين رسالة الله رب العالمين إلى الناس أجمعين.

إن الله تعالى يعكر بخبر، فإذاً عين يا يوحنا (ط: 13) ! وأفقه عن الله ما يقول، فإن الأمر يهم وجودك، ومصيرك أنت بالذات!

اقرأ، وأنصت، وتذرت قوله تعالى: "إِنَّا مَنْ أَحْيَا مَنْ أُمِيتْ مَنْ أُرِيَةَ مَنْ أُخْتَيَأَتْ يَهُودُوُّ النَّاسِ وَالْأَلْبَابُ حَيَّ".

(1) متفق عليه.
(2) رواه أحمد والحاكم وصحبه الالياني في صحيح الجامع الصغير: (6509).
لا أعتقد أن الأرض زُرَّطِفَّة وَأُرِضِنتَ وَأَلِهُمَّ أَنْ تَحْيِمَّ قَدْرَوْتُكَ عَلَيْهَا يَنْبِيَّةٌ أَمْرًا أَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلَتْهَا حَقِيقَتًا كَانَ لَمْ تَعْرِضُ إِلَّا أَنْ تَفْكِرُ كَذَلِكَ مَثَلًا الْأَنْبِيَّ لَيَقُومَ يَقْسُمُونَ {٥٨} وَالَّذِي بدْعُوا إِلَى دَارِ الْقُدُسِّ وَيُبْهِدُونَ مِنْ يَشَاءٍ إِلَى صَرْطِ مُسْتَقِيمٍ {٦٩} (بُ尼ِّس، ٢٤، ٢٥).

هَاهَا لَمْ تَفْهُمَّ (الحياة) حَقِيقَانُ: حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَحَقِيقَةُ الْحَيَاةِ الْأُخْرَى.

فَأَمَا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَأُهِمَّ خَصائِصُها الجَوْهِرِيَّةَ أَنْ هَا فَانِيَةٌ، فهُمْ مَحْكُومُونَ عَلَيْهَا بِ(الذنَبَاءَةِ)، وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ هَلَا فِي الأُيُوبِ السَّالِفَةِ مَثِلًا: وَهُوَ دُوَّارُ الْحَيَاةِ وَالْمُولُودُ فِي الطَّبِيعَةِ، إِذْ يَنْزِلُ مَاءُ الْحَيَاةِ فِي فَصْلِ الخَرْفِ وَفِصْلِ الْشَّتاءِ، غَيْرَ بِحُبَّةِ النَّبَاتِ مِنْ أَعْصَابَ وَزَرَوعَ، فَثَبَتَ الْأَرْضُ بِالرِّبَاعِ الزَّاهِرِ، وَتَعْتَفَل بِمُوْمَسَمِ الْجَيْلِ، أَشْجَرَاءٌ أَوْ أَطْيَارٌ أَوْ أَنْهَارًا، وَزَخْرُفَةُ تَعْلُو الْرُّوَابِ الْبَسَائِنِ والْسَّهْوَاءِ؛ فتَكُونُ أَقْحَبَةَ مَا تَكُونُ بِالْحَسَنَاءِ الْمَزْرَبةِ بِشَبْىِ الْتَلَّاوُنِ وَفَنْوَنِ الْتَقْرِيْبِ؛ حَتَّى تَكُونُ فِي أَسْحَارِ أَحْوَالِ الْإِغْوَاءِ وَالْإِغْرَاءِ! ذلِكَ أَنَّ الْزَخْرُفةَ الصَّارِحَةَ تَلْقَى عَلَى قُلْبِ الْإِنْسَانِ شَأْبَاً سَحْرِيَّةً، فتَسْتَرِيعُ كُلُّ وَجْدَانٍ وَتَفْكِيرٍ، فَلا يَرِى شَيْئًا بَعْدَ ذلِكَ إِلَّا مِنْ خَلَاءِهَا! حَتَّى إِذَا جَاءَ المَصِيفُ، وَأَنْضِجَتِ الزَرْعُ حِبْوَأَهَا؛ كَانَ الحُضَادُ مَآهَا، فَلا تَرِى لَهَا فِي الأَرْضِ أَثْرًا إِلَّا هُشَيْبًا مِنْ حُصِيدٍ! تَنَاوتُ أَورَاقُ الأَشْجَارِ عِنْدَ الْخَرْفِ، لَقَٰدّ ذَاتَالَا، تَذْرُوهُ الْرِّيَاحُ بِكُلِّ الْبَطَاحِ!
اكتشاف الحياة الأخرى

فتعوي ريح الفناء بالوديان والقينعان، لتكنس كل أثر للحياة،
وكان الأشجار المحتزمة الأغصان، ما أورقت قط
ولا أزهرت، وكان الأطياف الراحلة في الأفق البعيد ما
عشتت هاهنا ولا غردت! "كأن لم تُنبِّئَ بالأنبياء"!

تبصرة:

ولنا في هذا المثال الروائي الحق عبرتنان كلتاها ترجع إلى
حقيقة كونية عظمى: الأول: يتعلق بمفهوم المكان، أي
طبيعة بناء الكون، والثانية: يتعلق بمفهوم الزمان؛ أي طبيعة
حركة العمر.

فأما الحقيقة الأولى: أي مفهوم المكان؛ فهو راجع إلى أن
هذا البناء الكوني الممتد ما بين السماء والأرض؛ ليست له
طبيعة خالدة؛ لأن تكوينه الإبدائي كان كذلك؛ أي أنه بني
على هذا الوزان، وهو أن يحيا إلى حين، لا إلى الأبد، فكل
المكان من حيث هو مكان قائم على مبدأ الفناء، فحركة
أجراه ومداريات فضاءاته، كلها سائرة إلى نهايةها، ومن هنا
كانت حياة هذا الكون الحالي إنها هي (الحياة الدنيا)، فهي
حياة، نعم، لكنها إلى حين، إنها ( الدنيا)؛ أي قربة الأجل،
لا خالدة، ولا حتى ممتدة امتدادًا طولياً حقيقيًا، بالنسبة إلى
امتداد (الحياة الأخرى).
وكم أخطأ الناس في هذا الزمان في فهم معنى (الدنيا)،
إذ ظنوا أنها دالة على الجمال، والغنى والرفاه؛ حتى جعلوا
من أسنان بنايتهم (دنيا)، وما هذا التعبير بدلًا على المدح،
بل له دلالة قدحية ناقصة، فالدنيا - بهذا السياق خاصة -
من الدنيا والدناوة، وهي معنى نازل لا علم له؛ ولذلك قيل
لمى الأخلاق: دنيء؛ أي، له أخلاقيات منظمة قريبة من
الأرض، فالدنيا: حياة قريبة من الفناء، لا لدّة حقيقية فيها
ولا متعة، ما دام كل شيء فيها إلى فناء. فهي دنيا.

ومن هنا سمت العرب أبناءها - قبل الإسلام وبعده -
(خالدًا) و(خالدة)، إذ رغبوا قبله في الخلق الدنياوي،
وهو محل؛ لأن الضدين لا يجمعان، ثم رغبوا بعده في
الخلق الآخري السعيد، وهو ممكن بإذن الله.

إن بناء الكون الدنياوي له ساعة ينهار فيها، ثم يبنى بإرادة
الله، فلا يبقى شيء إلا الله الواحد الأحد، وهذه الساعة هي
( الساعة) بتعبير القرآن، ذلك الحدث الكوني العظيم، سألتك
بالله أن تتذكر قوله تعالى: ۚ ۚ پ لَسُلُوكُك عِنْ أَنْتَ السَّاعَةِ إِنَّ مَرْسَمَهَا فَقِ إِنَّهُ عَلِمَهَا
عَبْدُ رَبِّكَ لِيُظْهِرُهَا لَوَقَدْ فُلِدْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَأَتَيْهَا فَإِنَّهُ لَا يُسْتَلَوْكُ كَأَنْ كَحْبُطْتُ عَنْهَا فَقِ إِنَّا عَلِمْتَهَا عَبْدُ اللَّهِ وَلَكَنْ أَكْثَرُ آنَائِهِ لَيَظْهَرُونَ ۖ} [الأعراف: ۸۷]، ذلك هو السؤال الأزلي: الساعة؟ فلم
يزل الإنسان مذ كان يتوجس وقوعها، ويتحسس وقتها
وحقيقة، لكن الله علٰه أبّاه أنها سر من سرّ أسرار قضائه الكوني:
فل إِنَّمَا عَلَمَهَا عِندَ رَبِّي ۚ لَا يَجِيِّدُهَا لَوْ قَبِلَتْ إِلَّا هُوَ [الأعف: 187]، وقد ورد
في التفسير أن العرب واليهود كانوا كثير السؤال لمحمد
عن الساعة، كانوا يسألونه طلبي أن أعطيهم آنة، إذ لا يتصور في المرء إلا السؤال
عن الغواضب الكونية. ولذلك قال قيل: "عندك في السماء،
والآجر" [الأعف: 187] إنها حدث كوني عظيم، يمتد من
السما إلى الأرض. ليفتح ذلك التحول الرهيب في طبيعة
الكون، تدميرًا وتم كونًا وإفناء ثم خلقًا؛ لاستقبال الحياة
الأخرى، وإن أمرها في ميزان الله قريب.

ومثله قوله تعالى: "يأتيها آناس أنقوع يربطكم إنكم دزلة
الساعة ست عظيمة" [الحج: 21]. أرضعت ونصب سكن ذات حمل حملها وترى آناس سكنئها وما
هم يسكنئه وليكن عذاب الله شديد" [الحج: 21].

والساعة: هي القيامة، والواقعة، والقارعة، والصاقة... إلخ
من الأشياء التي عبر فيها الرب العظيم عن حظة نهاية
الكون الدنيوي، فالكون الدنيوي إذن تكون إبتدائي،
والكون الآخر يكوين استنادي، قال تعالى: "يوم نظف
السماء كلها إلى السماء كلها وكما بدأنا أول خلق نعيده
وجدًا علينا إنا كما نفعلن" [الأني worldview: 104]، وقال سبحانه:
"أوَلَمْ يَكُونَ سَكَنَفٌ بِبَيْنِيَّ اللهُ الْخَلْقِ ثُمَّ يَعْبِدُونَ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
اكتشف الحياة الآخرة

قولوا: آآآ في الأرض فأنزلناها صافئة بُنِئَ الحَلَقُ نُور الله

ومِنْ نَذِيرِ الآتِيَانَ إنَّ الله عَلَى مَا نَصَبَّتْهُمْ وَقَدِيرٌ [العنكبوت: 19 - 20]

ولذلك قال تعالى: ﴿فَنَّظَتِفِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: 187]

كم أوردنه قبِل

إن الساعة إذن؛ هدم وبناء: هدم لكون الدنيا، وبناء لكون الآخرة، إنها تحول كوني عجيب من طبيعة إلى أخرى، يحدث في حزوة واحدة، كاللمحة من البصر! كـأ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرَاءَ السَّاعَةِ إِلَّا كَّفَّرَبُّ الْبَصِيرُ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الله عَلَى سَجْدَةٍ وَقَدِيرٍ﴾ [النحل: 77]، وقال: ﴿وَمَا أَمْرُهُ إِلَّا أَقْرَبُ إِلَى الله عَلَى سَجْدَةٍ وَقَدِيرٍ﴾ [القرآن: 50].

إن الكون الدنيوي خلق فان، ومعهار إلى زوال، هذه هي الحقيقة الأولى.

أما الحقيقة الثانية: أي مفهوم الزمان؛ فهو مرتبط في دلالته بالمكان، بل إن الزمان وليد حركة المكان، فالمكان الفاني لا ينتج عنه إلا زمان فان. كـأ أن المكان الخالد لا ينتج عنه إلا زمان خالد. ومن هنا كان العمر البشري - مهما توهمنا أنه طال - قصيرًا جدًا. ويفكينا في ذلك حقيقة واحدة؛ هي أن الشهوات الدنيا كلها، لذتها تنتهي ببدايتها! كل شوق إلى المزرات الدنيا يموت بمجرد الحصول عليها، فلذة الطعام الشهي الجميل إنها تشعر بها.
قبل أن تأكله، وعند بداية الأكل، ثم يبدأ بعد ذلك خط الثلذذ في الهبوط حتى درجة الشبع، فالتمخمة، حتى يصير الثلذذ بعد ذلك موجوحاً قليلاً، وقد كان قبل قليل في غاية اللذة.

وقس على ذلك كل المتع الدنيوية، مما زين للناس، من مثل الوارد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أُوْلَٰئِكَ الْمُهْدُوٓوْيَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُحْيَىِّي الْمُمْتَفِكَةِ مِنَ الْدُّهْشِ وَالْيَسْكُوتِ وَالْحَخَسُوٓىٰ وَالْأَنْصَمُّ وَالْحَكِيرُ ذُلِّكَ مَنْ سَمَّىَ الحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۚ وَاللَّهُ عَلَيْهِ يَسْتَغْفِرُ ۚ ﴾ (آل عمران: 14). إن طبيعة الشهوات الدنيا أنها فانية، لا تكاد تبتدئ حتى تنتهي! وإنها جمال المتعة هو الخلوص فيها. هذا هو الجهل الحق، وتكب هي الحياة الحق؛ ولذلك قال بعد مباشرة، ناسحاً قبح الزوال بجمال الخلوص: ﴿فَلَوْ أَوْلَدَنَا يَتَّقُونَ ۖ ذُلِّكَ حَدٌّ سَمِيعٌ ﯾَلَّذِينَ أَتْفَقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ بَعْدَ هَذَا بَشَرٌ ﯾَتَّقَ بِيَدَيْهِ ﯾَتَّقُونَ يَوْمَ يُضَوَّأ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ بِهِ مُهْتَدِّ ۚ ﴾ (آل عمران: 15). قضية العمر أو الزمان راجعة إلى هذا المعنى، فالفرق فيه ما بين الوهب والحقيقة، هو بالضبط فرق ما بين الفناء والبقاء.

وما أجمل قول الله الملك السلام، في آبتي ( يوتس ) بما أوردنا قبل: ﴿نَجِيْ إِنَّا أُعْطِيْتُ الْآلهَةِ نَجْرُهَا وَأَرْبَيْنِتْ وَلَنَّا أَهْلُهَا أَنْهُمْ قَدْ دُرَّوْتُ عَلَيْهَا أَنْهَا أَمْرًا لَّيْكَ أَوْ نَهَا‌.﴾ (الأحقاف: 15)
اكتُشف الحياة الآخرة

فجعلنها حسيبة كأن لم تعرف بالإنسٍ. إذ لَّهُ يُحْكَمُها لِيُعْلِمُ الْأَبَاءَ يَقُولُ:

{ وَلَمْ يَقُولُوا إِلَّا دَارَ السَّلَامٍ وَهُدِيَهُ مِنْ يَقِيَّةٍ إِلَى صَرْطِ مُسْتَقِيمٍ بِذَاتِ يَمِينِهِ } [ يُوسُفَ: ٢٥ ] .

{ تَذَّبَّرُوا إِلَى دَارَ السَّلَامٍ وَهُدِيَهُ مِنْ يَقِيَّةٍ إِلَى صَرْطِ مُسْتَقِيمٍ } [ يُوسُفَ: ٢٥ ] .

- إنه معنى جيل جديدًا، فقد جاء مقابلًا لما ذكر من أمر الحياة الدنيا وزخرفها الفني، ومثالها الحصيد. إذ كان ذلك موح بالخوف والخرباء، لأن دار الدنيا هي دار الخراب، فكل نفس تعلقت بها إنها تعلقت بالنور، وهذه حقيقة رهبانية، فهل القلب هو لمَّا وفرَّع، إذا كان هذا الإنسان القارئ، أو المستمع للخطاب الرليني قلب فعلاً، { إنَّ فِي ذَلِكَ لَحُكْمٌ إِنَّمَا كَانَ لَهُ قَبْلُ إِنَّ أَلَّا يَأْسِفُونَ وَهُوَ سَبِيلٌ } [ بِرَّ: ٣٧ ] ، ف مقابل ذلك الشعراء يُدْعِعُونَ إلى دَارَ السَّلَامٍ { يُوسُفَ: ٢٥ } .

.. السلام الحق الجميل، المتمم بلا نهاية، يملأ عرض السواح وال الأرض، ولكن - فقط - لمن آمن وآمن، ولذلك قال:

{ وَهُدِيَهُ مِنْ يَقِيَّةٍ إِلَى صَرْطِ مُسْتَقِيمٍ } [ يُوسُفَ: ٢٥ ] .

فلها جدة بلا هداية. عمر متمد بلا نهاية، وزمان بلا حساب، يغدر من جمال الله خلودًا إلى الأبد، ذلك هو السلام، قال عز من قائل: { إِنَّ الْئِلَٰهُ لَقَالَ رَبُّنَآ اِنْسَيْهُمْ أَنْ يَكُونُوا طَائِفٗا وَأَنْيَزُوا أَيْمَانَهُمْ إِلَى الْمَجِيبِ أَلَّا تَفْتَرَسُوا وَلَا تَغَدَّرُوا } [ البقرة: ٣٢ ] .

{ تَوَكَّلُوا عَلَى الْعَزِيزِ الْأَحْيَّانِ وَلَعَلَّهُ يَغْفِرُ لَكُمْ فِي الْأَخْرَجِ } [ البقرة: ٣٢ ] .
اكتشاف الحياة الآخرة

ولكم فيها ما تتقين أنفسكم ولكم فيها ما تدعون فنَّزل
ِّمَن عَفَروُّ رَحْمَةٍ [فصلا: 30-32].

إِن الإنسان عندما يتذكر هذه الحقائق القرآنية العظيمة؛ يرى
بأعيده أن العمر الدنيوي مجرد حلم، وأن مفهوم (الحياة) إنها
يتجلى بصورة حقيقية في الآخرة، حتى لكان ما دون الآخرة
ليس بحياة! ولتلك آيات القرآن العظيم ناطقة بهذا، قال تعالى:
وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولبب وأين الدار الآخرة لا يدري الحيوان
لَو كَانَوا يُعَلَّمُونَ [العمون: 14]؛ فلفظ (الحيوان) صيغة
دالة في العربية على الامتلاء، كقولك (فيضان) بدلاً (فيض)
إذا كان قد بلغ السيل الزبى، والتقي الماء على أمر قد قدر،
فجرف كل شيء، فيقال حينئذ: (فيضان). فلفظ (حيوان)
هو بمعنى الامتلاء حياة، بل هو فيضان الحياة. تلك هي طبيعة
الحياة الآخرة تفرض بالحيوية والحياة، وتمتد نعمها التي لا تنفد
على عرض الكون، فلا يعرف لها نهاية، خلودًا مؤبدًا، إلى ما
شاء الله. ويبقى ما دون ذلك من (حياة) أشبه ما يكون بطعم
الصياد، الذي يغرى الفريسة، لتقع على المعته الوهمية؛ فتكون
من الهالكين. فهي (مَنْعِ اللَّعْبِ) [آل عمران: 185] حقًا، كما
قال تعالى في سياق آخر: (فَكَلَّمْ نَفْسَ ذَاتِ الْحَوْزَةِ وَإِنَّمَا تَوْفِيعُ
أجْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن رَجَحَ عَنْ الأَلْكِ وَأَذْجَلَ الْجَحْمَةَ فَقَدُ
فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلَّا مَنْ تَعْبِرُ الْمُخْرُوجُ) [آل عمران: 185].
اكتشاف الحياة الآخرة
والكافر لا يرى ذلك إلا بعد هلاكه، فلا يعجب تعبير القرآن في هذا! إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَهَّزْنِ ٣٨٠٣٣٥٠ بِيَوْمِ الْيَوْمِ ٣٨٠٣٣٥٠ ٣٨٠٣٣٥٠٠ بِيَوْمِ الْيَوْمِ ٣٨٠٣٣٥٠٠٠ ﴿ ٣٨٠٣٣٥٠٠٠ [ الفجر: 23: 24]، فحمرة الكافر ندمه إنها هو لكونه لم يقدم له حياته، ويقصد الحياة الآخرة، ولكنه لم يصفها بـ( الآخرة)؛ للدلالة على أنها هي وحدها حياته، إذ أدرك الآن عيانًا أن ما سبق من حياته الدنيا ليس بحياة، فندم على تفريطه في حياته الحقيقية: الآخرة، وتبتغى الأمر أنه ما حبي إلا من حبي في الآخرة وللاخرى. وأما الدنيا فهي - بالنظر إلى هذا المعنى - ليست بحياة؛ إلا مجازًا.
فإذاً لا طول للحياة الدنيا ولا بقاء لها مكانًا وزمانًا، بل هي مجرد خدعة للإنسان إن لم يستثمرها للحياة الحقيقية: الآخرة، إنها - لو تدبرت - عمر في أيام. فلا طول، وإنها الطول مفهوم يبدل على الحصر؛ إذ ما سمي طولاً إلا لقلبته للعبد والقياس، وكل محدود محدود. ومن هنا وصف الله الجنة بالعرض دون الطول، وذلك بعدما قرر طبيعة الحياة الدنيا، فقال على سبيل الجزرم والتحذير: ٣٨٠٣٣٥٠٠٠ اعلموا أنتما أنكما تلدبن أبداً وبَهُوَ ٢١٣٢١٢٠٠٠٠٠ وَوَزْيَنَتْ وَتَفَافَتْ يَسخَّرُونَ ٢١٣٢١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ وَتَكَلَّمُونَ ﴿ ٢١٣٢١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠..
لا أريد أبدًا لِلذِّي بَيْنَيَّ، عَامِلُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِن
يَتَّبِعُونَ وَلَهُ دُرايُّ الفَضْلِ إِلَى الْمَطْرِيِّ [الحديث: 21، ص 120] 

لقد ابتدأ الخطاب في الآية بهذا الأمر الجائز: (اعلموا...!) والعلم إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع قطعًا وقريبًا، أي بلآ تردد ولا شك، ولا ظن. (اعلموا...) هكذا قطعًا، وجاء المثال القرآني العجيب مرة أخرى بصيغة أخرى: مثال الزرع إذ ينشر الفلاح بخضرة وجماله وسبله، فلا يبدي أن يصير حقله الجميل حطامًا، أو حقيًا كان لم يغنى بالأمس! فكلذك الدنيا كلها بزيتها وأموالها وأولادها، وما الحيوان الذي لا متعه المُعَصَّرَيْنِ [آل عمران: 185].

وهنا جاء المقابل الآخري هذه المرة في القرآن الكريم بصيغة فريدة.. لا مثيل لها، جاء طلب المسابقة إلى المغفرة والجنة، ووصف الجنة بها قال تعالى: خَالِدُونَ فِيهَا أَبْدًا، وَالْأَرْضُ [الحديث: 121]، ووصفها بالعرض دون الطول، ذلك هو الزمان الأخري السعيد، والعمر الجميل المديد، تلك هي الحياة.. (خشئين فيها أبدا) [النساء: 77]، إن (الطول) كما ذكرنا - مفهوم محدود محدود، والجنة لا حد لها ولا حد. إنها (الحيوان)، فلا يلبق بوصفها من ألفاظ الامتدادات إلا (العرض) إذ بالعرض تعيش اللحظة الواحدة أكثر من مرة، أما الطول فلا يتيح لك من اللمحة
الواحدة إلا خطرة واحدة، تُخطرها إلى أمام؛ لتصبح بعد ذلك من (الماضي)، فلا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين، كما قال الحكاء، وأما العرض فهو امتداد أثقي في الزمان الفسيح، إذ تتمتع بالملحة الواحدة أبدًا، وتعيش الشعور الواحد أبدًا، وتعرف من اللحظة الواحدة معنى الخلد، صورته في الدنيا هي (بركة العمر)، حيث يبارك الله العمر القصير - ولا يكون العمر إلا قصيرًا - ويكيه; فيجز المؤمن فيهم من الصالحات; ما يمكنه بإذن الله من الخلد في الجنة، وصورته في الآخرة: حياة سعيدة مطلقة في الزمان، ساحبة في الجبال، تنعم بها لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

- فما أبلد من يستنزف طول عمره على حساب عرضه! ولا يسبق إلى هذا إلا من عرف الله إبداء، ثم اكتشف هذا المعنى اللطيف (للحياة)، وذاق جماله، فسابق إليه، وإنما (ذلك فضل الله يُؤتيه من نبيته) و(الله ذو الفضل العظيم) [الحديث: 21] فكيف السبيل إلى ذلك، وكيف المسير؟ ذلك هو البلاغ الرابع من بلاغات الرسالة القرآنية، فيه بيان طريق العمل، ورسم معالم السلوك.

***
في اكتشاف الصلوات وحفظ الأوقات

لو أدرك المسلمون اليوم ما معنى ( الصلاة )؟ ما تركها واحد منهم، إلا من أصر على ضلاله وعياه، أو كر على كفره وزندقته!

تبصرة:

أما أنت يا صاحب فاعلم أن السير إلى الله من غير مسلك الصلاة ضرب في التيه!

كل أعماقك في الجهاد، والدعاء إلى الله، وما تستكتره من حركات وسياسات؛ راجعة إلى مدى سلامة هذا الأصل عندك؛ قصدًا، ووقتًا، وأداء، وإلا فعلي دينك السلام! كر لِيُبِينُ بِقَيْبَةٍ يَحْسِبُهُ الْبَذَالُكَ مَآَهُ حَقًّا إذَا جَآهَهُ لَّنْ يَجُذَّبَهُ شَيْئًا وَيَجْدَ آنَامَ اللَّهُ

(النور: 29)
إنيك لن تذوق ما الإيان وما الإسلام؛ حتى ترحل إلى الصلاة: تكتشف أسرارها، الممتدة إلى بحر الغيب المطلق؛ فترى عجبًا. ذلك هو البلاغ الرائع من بلاغات الرسالة القرآنية، فهي نتيجة فعلية لكل من تلا القرآن حق تلاوته، إنها أول ما يبادر إليه المحب أول ما يتذوق معنى المحبة؛ إذ يتعرف على جمال الله من خلال القرآن الكريم؛ ومن هنا أمره بالصلاة؛ مباشرة بعد أمره تعالى بالصلاة، على سبيل العطف المباشر، المشعر بالتضاور بين الفعلين، مما يوحى بانعدام الفرق الزمني بينهما؛ لما بين الاستجابتين من ارتباط وثيق، إن من تعرف على القرآن الكريم حقًا لا يملك إلا أن يصلي، قال تعالى: "فَأَتُّلَّمَ ْمَا أَوْحَى إِلَّهُ مِنْ أَلْقَابِ وَأَفْقَهَ الْعَلَّامَةُ إِنَّ السَّلْوَةَ ِّتَشْكِكُنَّ عَنْهُ وَفَهَّمُ ْوَالْمُسَكِّنُ ْوَلَيْكُمْ أَسْقَبُ وَلَّٰكُمْ يُعُلِّمُونَ آتَى الْمَلَائِكَةَٰ" ([العنكبوت: 45]).

ومن هنا كان أول عمل من العبادات قام به رسول الله ﷺ - بعد الإيان بالله وتحيده - هو الصلاة، وهي أول عمل تعلمه من تطبيقات القرآن، وهذا أمر مهم جدًا في معرفة ما يبدا به من أمر البلاغ. قال عليه الصلاة وسلم: "أتاني جبريل في أول ما أوحى إلي فعلمني الوضوء والصلاة، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه". ذالك أول العمل، كما هو ظاهر هذا الخطاب: (في أول ما أوحى إلي)،

(1) رواه أحمد والدارقطني والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (76).
الضوء والصلاة، وهذا دلالة كبيرة في معرفة البدايات والأصول العمليات، ولم يزل ذلك مراقبًا لعمل الرسول ﷺ، فلا يزداد مع الأيام إلا ترسخًا في الدين، وما نزل القرآن بعده إلا بما يؤكد أنه أساس الغيابات، ومنتهى العبادات.
وتأمل كيف أن الله ﷺ أفرد (إقام الصلاة) بالذكر - في بناء المنهج الإصلاحي - بعد ذكر التمسيك بالكتاب، مع أن الصلاة فرع عن التمسيك بالكتاب، وداخلة في معناه، فلولا أنها أساس، وأم من أمهات البلاغ القرآني، ومنطلق من منطلقات الصلاح والإصلاح؛ لما كان لها ذلك التفرد الفريد، قال عز من قائل: ﴿وَلَيَنْسَبُ الْكِتَابَ إِلَىَّ الْكَبِيرِ وَأَقْمُوا الصَّلَاةَ إِنَّهَا لَنُضِيعُ أُجْرَ الْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: 170).
إن العلماء يجمعون على أن الوظيفة الوحيدة للإنسان في الكون هي عبادة الله، فكل حظوظه الدنيوية إنها هي منتجة بالتبع مع أصل العبادة، وإنما أتصبح له أن ينال من حظه ما يعينه على وظيفته الأساس، وأصل ذلك ومستنده قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتَ لِلْجَنَّةَ وَالْأَرْضَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴿(النور: 56). إن خلاصة دين الإسلام عقيدة وشريعة، هي إخلاص العبادة لله الواحد القهار، والصلاة منه هي مفتاح كل شعيرة من شعائره، وروحها، وغايتها؛ زكاة، وصيامًا، وحجًا، وجهازًا... إلى آخر ما تفرع عن هذه وتلك من سائر أعمال
البر، ولذلك كانت الصلوات الخمس - بعد الشهادات - هي العنوان الجامع المانع لكل أعمال الإسلام. إذ كل ما سواها داخل في معناها. وليس عبثًا أن يعتبرها الرسول خير أفعال المسلم، قال: «سدوا وقاربا» وفي رواية: «استقيموا ولن نحصوا، واعلموا أن خير أفعالكم الصلاة ولا يحتفظ على الوضوء إلا مؤمن» (1).

ولقد فصلنا هذا في غير هذا المكان من كتبنا(2)، لكننا نقتصر ها هنا على ما يفيد السياق.

لقد جعل الله الصلاة هي آية المسلمين، والعلامة الجميلة التي تميزه في مسيرة التاريخ النبوي، فهي الفصل الذي لا يعرف إلا به، والثور الذي لا يمشى إلا به، قال تعالى: "فَعَمِّدْ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ آثِمًا عَلَى الْكِتَāبِ رَحْمَةً بِنَبِيِّنَهُمْ تَرَيْنَهُمْ رَكَعًا سَمِعْنَا بِنَبِيِّنَهُمْ وَقَرَأُنَا لَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا ذَلِكَ مَلَأَهُمْ فِي الْبُرْزَمِ وَمَلَأُهُمْ فِي الْمَيْمَّٰٰثٍ كَرِيْرٌ أَحْيَّا سَطْحُهُ فَاتَّبَعُوا فَاتَّبَعَهُمْ عَلَى سَوْقِهِ يُجْعَلُ الْزَّرَاعَ لَيْعَظِّلْ مُحْكَّمًا وَإِنَّ اللَّهَ لَذُلِّكَ حَسَنًا لِّلنَّاسِ وَإِنَّهَا أُمَّةٌ مُّنْتَظِمَةُ} [الحج: 29]، وإنها اكتسبوا صفاتهم الأولين: الجهادية: "أتيت على الكُتَāبِ، والخلفية: "رحمةُ بنيتم"، من كونهم رهبانًا بالليل، أي قوله: "تَرَكُوهُم رَكَعًا" (3).

(1) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم، والدارمي والبزار، والبيهقي والطبراني، وصحبه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: (952).
(2) ن. كتابنا: قناديل الصلاة. دار السلام، القاهرة.
إكتشاف الصلوات

سُجَدًا» [الفتح: ٢٩ ] الآية؛ لأن ذلك هو المعين الصافي الذي يتزود منه المسلم الصادق المجاهد الداعية إلى الله؛ بصدق التوجه والسير، من حيث إن قوله تعالى: «ترنُّهم رَّكَعَةٌ سَجَدًا» [الفتح: ٢٩ ]، فيه إشارة إلى أن ذلك هو دأبه وحاجته المستمر في حركتهم العبديّة؛ إذ التعبير باسم الفاعل جمعاً: رَّكَعَةٌ سَجَدًا، في سياق الفعل المضارع: «ترنُّهم»؛ يوحي بصورة حية لقافلة المؤمنين، وهم منخرطون في حركة الصلاة المتواصلة، من غير فتور أو انقطاع، سيرًا مستمرًا حتى كان ذلك صفة ثابتة لهم، حيث عبروا، «ترنُّهم رَّكَعَةٌ سَجَدًا».

ولذلك كان تشبه النبي الصلاة في حياة المسلم العبديّة بالنهر الجارئ، قال: «أرأيت لو أن نهرًا باب أحدهم يغسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من ذروته شيء؟ قالوا: لا يبقى من ذروته شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بين الخطايا».(1)

إن الإسلام في نهاية المطاف هو الصلاة، بالمعنى الذي سبق بيانه؛ وعلى هذا الوزان تَقُوم أعباه كله يوم القيامة، وعلى ذلك يتعدد مصيره الآخر...! قال عليه الصلاة وسلم في الحديث الحاكم الحاسم: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة! فإن صلت فط قد ألغح

(1) رواه مسلم.
وأنصح، وانفسدت فقد خاب وفطر! وإن انقص من فريضته قال الرب: انظروا هل لعبيدي من تطوع؟ فيكلم بها ما انقص من الفريضة؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك ((1).

وأوضح من هذا دلالة على ما نحن فيه قوله: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صهلت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فساد سائر عمله» (2)، فليس عبثًا إذن أن قدم النبي الصلاة في مراحل أعين ابن آدم، على سبيل ترتيب الأولويات: (أحب الأعين إلى الله الصلاة لوقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله) (3)، إن الأمر جد، فتدبر! ثم أبصر!

وما يبقى لمسلم ترك الصلاة من إياه، إلا ما لا يفصله في النار، لا ما ينقلبه منها بإطلاق، قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» (4)، وقال أيضًا: «بين الكفر والإيام ترك الصلاة» (5)، ومثله قوله: «ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك» (6)، وهذه

(1) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وسُمجره الألباني في صحيح الجامع الصغير: (2020).
(2) رواه الطبراني في الأوسط، والضياء عن أنس. وسُمجره الألباني في صحيح الجامع الصغير: (2573).
(3) متفق عليه.
(4) رواه مسلم.
(5) رواه البخاري بن سنده صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير: (2849).
(6) رواه ابن ماجه بن سنده صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير: (5388).
الأحاديث وما في معناها تقتضي أن المسلم التارك لصلاةه قد شارك الكفار في صفاتهم، فكفر عملًا وإن سلم عقيدة؛ لأن المسلم إذا تميز بصفة الصلاة التي هي عنوان إسلامه – كما بنياه قبل – فمن قَدْ عَنَوَاهُ فَقَدْ هُوِيَتَهُ.

ولنعد إلى جمال القرآن الكريم، ذلك أن الله تعالى إذ يصف فلاح المؤمنين، يذكر الصلاة باعتبارها أول وسام نوري – بعد الإيمان – يشع من قلوبهم، وهو أمر يكاد يكون مطرداً في كل آي القرآن العظيم، يقول الملوك الكريم في أول سورة البقرة: "لَوْ صَبَرْتُمْ لَأَرْبَأْتُمْ فِي هَذَا الْبَتِّيْنِ ۖ لَفِي الْقِرَآَنِ ۔ ( البقرة: 1-3)", ومن أجل ما ورد في ذلك فائتة سورة ( المؤمنون )، إذ جعل الله أول صفاتهم الخشوع في الصلاة، وآخرها المحافظة على الصلاة، وكل أعمال الصلاة من فعل الخيرات وترك المنكرات؛ جعلها فيها بينها، فقرأ وتدبر، واحفظها واحفظها واحدة واحدة: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۔ اللَّذِينَ هُمْ فِي صُلُوْبِهِمْ خَشِيَّنَّ ۔ ( المؤمنون 11)", 

والذين هم مع الله مُضْرَعُون ۖ ( والذين هم للزكاة فنيلون 11)، وهو ليبدؤهم خفيفون ۔ إلا على أَرْجَحِهِمْ أو مالكك أَمْسُهُمْ فإِنَّهُمْ غَيْرِ مُلْوَسِهِمْ ۖ فَمَيْنَ أَبْنَأَهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۖ ( وأَلَّذِينَ هُمْ لَا يَشْتَهِيّهِمْ وَعَصُودِهِمْ رَعُونَ ۔ ( وأَلَّذِينَ هُمْ عَلَى صُلُوتِهِمْ يَحَفَّظُونَ ۔ أَوْلَيْكَ هُمُ الْأُولُونَ ۖ ( الذين هم في خليدٍ) ( المؤمنون: 1-11).
فانظر كله فاكحته الصلاة، والخيار كله فاكحته الصلاة، والخيار كله غايتها الصلاة، والخيار كله وسيلة الصلاة.

نبصرة: والصلاة تركها هي فعل:

إن كنت تصلي حقًا، فأنت تبارك لكل منك من الكبائر والمرائب! من مثل الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال الयتيم، والتولي يوم القيامة، وقذف المحسنين المؤمنات الغافلات، وكذا تناول المحرمات من المطعومات والمشروبات، كأكل الدواب، والدم، ولحوم الخنزير، وما أهل به لغير الله، وشرب الحمر أم الفواحش، وسائر المشتكرات والمخدرات، والسقوط في المحرمات من المعاملات والمليوسات، كالكبر، والظلم، والغصب، وشهادة الزور، وأكل أمور الناس بالباطل، والقمار، وسائر المنكرات!

فتذوب كيف أن الله جل جلاله ذكر في سياق صفات الفلاح - ما أوردهنه قبل من فواج سورة (الؤمنون) - عددًا من الأفعال والتزكيم، كان جانب الترك فيها أكثر حضورًا، باللفظ أو بالمعنى، كـ ( الإعراب عن اللغو)، و (حفظ الفروخ) الذي هو في معنى النهي عن الزنى، والنهي عن كل مسالكه وأسبابه، و (رعي الأمانات والعقود)، الذي هو في معنى النهي عن الخيانات بشتى أنواعها، وهذا شيء مهم جداً، ذلك أن الصلاة كأ ذكرنا ترك من التزكيم.
وجامع ذلك كله قوله تعالى: { وإن أظلماؤكم أظلماؤكم تَّنَعَّنُ عَبْرَ الفَحْشَاءَ وَالشَّكْرِ}, وذكرت الله { أَكِبْرُ وَلَٰهُ الْيَوْمَ مَا تُصَنَّعُونَ} {العنكبوت: 64}. هل أبصرت هذه الآية؟ أبصر إذن كيف أن الله تعالى أسدَّح فعل النهي للصلاة نفسها! كأنها هي ذاتها شخص معنوي، في هيئة نبي مرسل يؤدي مهمته التبليغية، أو عبد مصلح يقوم بوظيفته الإصلاحية! أعد التلاوة وتنبئ: { إِنَّ أَنفُقُواْ تَّنَعَّنُ عَبْرَ الفَحْشَاءَ وَالشَّكْرِ} {العنكبوت: 65} عجيب! لأن معنى ( أن تصلي): هو أن ترحل عن خطابك إلى الله. تخرج من دركك العادة إلى درجات العبادة، وهذا كلام يعبر عن حقائق لا يعلم مدى عمقها في النفس إلا الله! إذ تحول الأدوار وتبدل، يتغير طعم المنكر في قلبك فلا تستطيعه. ويتبدل ذوق شهوات الحرام من الرغبة إلى الغضبة! وتصبح خلقًا آخر! أبصر ثم أبصر! فإن الصلاة تصنعك! نعم، إنها { يَّنْفُخُ عَبْرَ الفَحْشَاءَ} {والشَّكْرِ} {العنكبوت: 65}.

هل غلبت الفاحشة ولم تستطع التخلص منها؟ هل أنت مدمن على خطئك ما دواؤك واحد: صل! تقول لي: إنني أصل.. لا! صل! فإنك لا تصلي! { إِنَّ أَنفُقُواْ تَّنَعَّنُ عَبْرَ الفَحْشَاءَ وَالشَّكْرِ} وذكرت الله { أَكِبْرُ وَلَٰهُ الْيَوْمَ مَا تُصَنَّعُونَ} {العنكبوت: 64}. صل، تجد أن ما كان يأسرك من المحرمات بالأمس، ويملا عليك قلبك نزوة ورغبة.
إن الصلاة سفر من الأرض إلى السواء، فأتي لمنزل السلام أن تصطدم بنوازل الحرام? أبداً، لا شهود للدرجات في نتائج الدَّرَكَات!

تبصرة:

فقال سماحة: فِإِنْ خَشِيتُمْ لَا تَخَشَّوْا وَلَا تُرْكُبَا تُلْدِعُونَُّ...[البقرة: 339].

فقوله سماحة: فِإِنْ خَشِيتُمْ لَا تَخَشَّوْا وَلَا تُرْكُبَا تُلْدِعُونَُّ...[البقرة: 339].

فقوله سماحة: فِإِنْ خَشِيتُمْ لَا تَخَشَّوْا وَلَا تُرْكُبَا تُلْدِعُونَُّ...[البقرة: 339].

فقوله سماحة: فِإِنْ خَشِيتُمْ لَا تَخَشَّوْا وَلَا تُرْكُبَا تُلْدِعُونَُّ...[البقرة: 339].

فقوله سماحة: فِإِنْ خَشِيتُمْ لَا تَخَشَّوْا وَلَا تُرْكُبَا تُلْدِعُونَُّ...[البقرة: 339].

فقوله سماحة: فِإِنْ خَشِيتُمْ لَا تَخَشَّوْا وَلَا تُرْكُبَا تُلْدِعُونَُّ...[البقرة: 339].

فقوله سماحة: فِإِنْ خَشِيتُمْ لَا تَخَشَّوْا وَلَا تُرْكُبَا تُلْدِعُونَُّ...[البقرة: 339].
فأذا بقي لك بعد هذا يا صاحب من الأعمال الحادية إلى باب الله? وهما أنت ترى الصلاة أساس السير على كل حال، منشطاً ومكرحاً؟ فأبصراً!

ألفت الصلاة الصوفية كثيراً معرفةً في كتب السنن وكتب الفقه، وإنا الغالبة عندنا هاهنا العبارة من الأحكام لا أنفس الأحكام. وذلك أن الله تعالى طلب من المسلم الصلاة على كل حال ما دام عقله سليمًا، لا ينقصه جنون أو إغواء أو ما في معناها.

أحب هاهنا يا صاحب – وأرجو أن تصر علي قليلاً لتعرف حجم هذه الفريضة التي ضيعها كثير من الناس اليوم، ولتعرف
حجم الخسارة الواقعة بـ ضياعها؛ أن أعرض لبعض الفقه
في صلاة الخوف، ليس لذات الفقه، ولكن لبيان خطورة
هذه العبادة في الدين، ومقامها عند رب العالمين. جاء في
حاشية السندي على النسائي: قال النووي: روى أبو داود
غيره وجوهًا في صلاة الخوف يبلغ مجموعها ستة عشر
وجهًا. وقال الخطابي: صلاة الخوف أنواع، صلاها
رسول الله في أيام مختلفة، وأشكال متباينة، يتحرى في
كلها ما هو أحرج للصلاة، وأبلغ في الحراسة، وهي على
اختلاف صورها متفقة المعنى.

قال الإمام أحمد: أحاديث صلاة الخوف صحاح كلها،
ويجوز أن تكون كلها في مرات مختلفة، على حسب شدة
الخوف، ومن صلى بشدة منها فلا حرج عليه.)۱.

قلت: ومن أحرج الوجوه في صلاة الخوف ما رواه البخاري
عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: (غزوت مع
رسول الله ﷺ تصدُّى، فوازين العدو، فصاففاً لهم، فقام
رسول الله ﷺ صلى لنا، فقامت طائفة معه تصلي، وأقبلت
طائفة على العدو، وركع رسول الله ﷺ بمن معه، وسجد
سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاجوا

۱) حاشية السندي على النسائي (۵/۱۶۸) لأبي الحسن نور الدين بن عبد الهادي
السندي، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب. ط. الثانية (۱۴۰۶ـ/۱۹۸۶ م).
 Invisible: الشيخ عبد الفتاح أبي غدة.
فَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ رَكْعَةً، وَسَجَدَ سَجْدَتَينَ، ثُمَّ سَلَمَ، فَقَامَ كُلٌّ واحِدًا مِنْهُمْ، فَرَكَعَ لَنفْسِهِ رَكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَينَ.(1)

وَمِن ذلِك ما رواه البخاري أيضًا، عن ابن عباس رضي الله عنَّهُ، قال: ( قَامَ الْنَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ النَّاسُ مَعْهُ فَكَبَرَ وَكَبَرَ مَعْهُ، وَرَكَعَ وَرَكَعَ نَاسٌ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَا مَعِهِ، ثُمَّ قَامَ لِلثَّانِيَةِ فَقَامَ الذِّينَ سَجَدُوا وَحَرَسُوا إِخوَانَهُمْ، وَأَتَتْ الطَّائِفَةُ الأَخْرَى فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا مَعِهِ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنْ يُحْرِسُ بعضاً بعضاً). (2)

وَلَمْ يَأْخِرْ صُورَهَا عَلَى الإِطْلَاقِ أَن يَصْلِيْهَا كُلْ واحِدٌ لَنفْسِهِ رَكْعَةً واحِدَةً بَالإِيَاءِ، وَذَلِكَ أَنْهُ إِذَا اشْتَدَّ الخَوْفُ، كَأَنَّهُ هُوَ الْحَالُ عَنْدَ مَسَايَةٍ، وَنَجْوَاهَا مِنِ الْاِشْتَباَكِ فِي الْقَتَالِ، يَصِلِّيْ كُلْ واحِدٌ لَنفْسِهِ رَكْعَةً واحِدَةً، رَاكِبًاْ أَوْ رَاجِلًا مِّقْبَلًا وَمَدْبِرًا.

قَالَ الْقَرْطَبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: ( وَخَلَفُوا فِي صَلَاةِ الخَوْفِ عَنْدَ الْتَحَامِ الْحَرْبِ، وَشَدَّة الْقَتَالِ، وَخِيَفَ خَروْجِ الْرَّوْقِ، فَقَالَ مَالِكُ وَالْثُوْرِيُّ وَالأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَوَعَامِةُ الْعِلْمَاءِ: يَصِلِّي كَيْفَ أَمْكِنٌ؛ لَقَولِ ابنِ عَمَرَ: ( فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَكْثَرْ))

(1) رواه البخاري.
(2) رواه البخاري.
من ذلك فيصلي راكباً أو قاتياً يوميّاً إياه» قال في الموطأ: مستقبل القبلة وغير مستقبلها (1)، وهذه من عجيب صورها. فانظر رحمك الله، هل يبلغ شيء من أذاع الناس اليوم ما ذكره العلماء من الشدة والخرج في القتال، ولم يروا مع ذلك رخصة في تركها، أو تأخيرها عن وقتها؟

فعجيب أمر هذه العبادة العظيمة.. لا ترأ ذمة المسلم منها حتى يؤددها، وقد جاء تأكيد ربطها بالوقت في ظروف الحرب كما قرأت؛ حتى لا يؤخرها المسلم عن وقتها الذي فرضها الله فيه، فالحرب، بل الاشتباك في المعركة، أي ما يسمى قلبيًا بـ (المسايفه)؛ ليس عذراً لتأخير الصلاة عن وقتها، بله أن يكون عذراً لتركها. وإذا هو يؤثر فقط في شكل أدائها لا في إسقاطها، أو إخراجها عن وقتها، صل على أي حال كنت، وخذ حذرك! (إذ الدُّسَّانَةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ)

كُتُبَ (مُؤْتُوِّنَ) [النساء: 103] في السلم وفي الحرب سواء!

تبصرة:

فإلا الذين يرابطون في أسواق التجارات، أو يرابطون في أسواق السياسات والنقابات، ويفترطون - أو يتكاسلون -

(1) تبيين القرافي، المسمي بالجامع لأحكام القرآن (5/379)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرافي، نشر دار الشعب، القاهرة، ط. الثانية (1372)، تحقيق: أحمد عبد البارين البردوني.
في أداء الصلاة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ إليكم المفهوم النبوي للرباط! قال ﷺ في سياق التنبيه والترشيد:

"ألا أذكروا ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدراجات؟ إسحاغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطة إلى المسجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.. فذكرو الرباط! فذكرو الرباط!

(1)

إنه تفسير نبوي لقول الله تعالى في حكم البلاغ القرآني:

في يوتيت أَنَّ الَّذِينَ أَطْعَمُونَ وَإِنْ تَمْهَبُنَّ فِيهِ أَسْمَعُونَ يَسْلِيحُونَ لَهَا ﷺ بالغدُوَّ والأنصار (2) يَجَالَلُ لَّهُم مَّنْ تَجَلَّأْ وَلَا يَبْقَ عَن ذِكْرِ الَّذِينَ إِنْ قَلَّتْ الْصَّلَاةُ وَإِنَّ الْبُكْرَةَ تُبَذِّلُ وَمَا نَتَّلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأنصار (3) ليجبرُهُمْ أنَّ اللَّهَ أَحْسَنَ مَا عَيْنُوُّ وَمَزَادُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يُزَادُ مِنْ كَبْرَهُ يَعْجَرِ حَسَابُهُ [النور: 36-38].

يا حسرة على العباد! لو بدركون ما هذه الصلاوات؟ ويا حسرة ثم يا حسرة! على نابثة من أبناء الحركات الإسلامية، تعددت بهم السبل من هنا وهناك، وتفروقت بهم الأهواء، وانغمسوا في التيه من كل صوب، وأضاعوا هذه الصلاوات، خشوعها ومواقيتها وجمالها؛ فصدق عليهم قوله تعالى:

فَلَيْنَفْقَانَ فِي الْبُكْرَةِ حَلَفَ أَصَاغُوا الْصَّلَاةَ وَأَصَاغُوا النَّهُوَاتِ فَسُوفُ يَلْفَقُونَ [عَمْرُو] [مريم: 59].

(1) رواه مسلم.
تبصرة:

إبان للسياسة والرياضة لشهوة لو كنتم تعقلون، وإن لأشعة الإعلام، وزينة الكاميرات لشهوة لو كنتم تفكرون. تلك آية فصلة بين نوعين من الأجيال، بينها ما بين النور والثار من دلالة، فلا عالية رهبة عظيمة لو تذكرتها، اقرأها ها هي ذي كاملة، فتدرب: فأتيِلَكَ الَّذِينَ آمَنُواٰ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ الذَّبَرَةِ مِّنْ ذَرِّيَّةِ ٌأَدَمْ وَمَنْ حمَلُ مَعَ نُوحٍ مِّنْ ذَرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ هَدَى وَجَبَرَیْنِ إِذَا نَلَى عَلَيْهِمْ اذْعَبَتُ الْأَرْحَمُنَّ حَرَّوُا سَعْدًا وَكَبِيْرًا (٤٨) هَلْفُ مِّنْ بَعْضِهِمْ حَلَفَ أَضَاغُوا ٱلْشَّقَّةَ وَأَنْبَعَوا ٱلْشَّهَوَاتِ فَسُوْفَ يَلْقَوْنَ ٱنْفَسًا (٥٠) إِلَّا مِّنْ تَأْبٍ وَمَآمَنْ وَعَلَّ صَبِيحًا فَأُلَّكَ يَبِدَّلُونَ ٱلْحَاجَةَ وَلَا يُظْلِمُونَ شَيْئًا [مريم: ٥٠-٥١].

فتدرب. ثم تذكر عسي أن تدرك بذوقك ما هذه الصلوات في الإسلام? فنبصرها، وتركب أوقاتها؛ لتدور بفلك العبادين سيراً إلى الله العلي الكبير، فالصلاة هي العبادة التي تدخل من خلالها إلى نسك الكون، في صحبة الكائنات السائرات من النباتات إلى المجرات، لا فوضى ولا عصيان ولا تمدد، في فَلَهُمْ يَسْجُحُونَ [يس: ٤٠]، فأين أنت من المدار؟

ذلك نص البلاغ النبوي المستمد من وحي الله رب العالمين، فاختير لنفسك ما ينجيها إن كنت من العاقلين! فَعَدَّ جَاءَكُمْ بِصَبَابَكِ مِنْ ذَرِّيَّةِ أَبْصَرٍ فِي نَفْسِهِ، وَمَنْ عَيْنَ فَطَلِيَهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِيَضْفِيضٍ [الأنعام: ١٠٤].

***
في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ألم تعلم بأن الإسلام رسالة؟ ألم تأت مسلماً؟ إن كنت كذلك حقاً؛ فقد تعلقت بك أهم صفات ما أنتسبت إليه من الإسلام: الرسالية، قال في أمر مطلق لكل الأمة: (بلغوا عني ولو آية) (1).

ومن هنا كان المجتمع الإسلامي حركة دعوية بطبيعته، وجماعة إصلاحية بفطرته. إنه مذ أعلن أن محمد رسول الله، تقلد - بمقتضى عقيدة الاتباع - مهمة الدعوة إلى الله. فليس عبثاً أن يضح النبي بكل وسائل التحريض والتشجيع - على الدعوة إلى الخير والهدى، كما في قوله:

(1) رواه البخاري.
(فُوِّضَ الله َلَنَّ ٍ يَبْنِي الدِّينِ يَكُونَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرًا لَكَ مِنْ خَمْرٍ
النَّعْمَة) (1).

وَمِن هَذَا شَهَادَةِ اللهِ بِالحَشْرِيَةِ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، فِي قُوَّةِ تَعَالَى:
كَنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَاشِئِينَ تَأْمُرُونَ بِالْمُعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَن
الْمُتَعَدِّدِينَ وَتَزْوَجُونَ يَكْفُرُونَ [آل عمران: 110]. إنّها صفة عامة في كل
من أسلم الله الواحد القهار؛ ولذلك كان حديث تغيير المنكر
دالًا على العموم، وليس له ما يقيده - في الأمورين به - إلا
شرط الاستطاعة ورتبته. وذلك قوله تعالى: "مَنْ رَأى مَكْرُهُ
مُنْكَرًا تَلْبِيًّا بَيْدَهُ، فَإِنَّمَا يَتَسْتَطِعُ قَبْلَاهُ، فَإِنَّمَا يَتَسْتَطِعُ فَقْلُهُ،
وَذَلِكَ أَصْفَعُ الإِئَامَانِ" (2)، وقد بُنِى في كتاب "الفجور
السياسي" مراتب التغيير، وطبيعة كل رتبة منها بها يغني عن
تفاصيله هنا، فكان أن بُنِى إلزامية ذلك لكل مسلم على قدر
مرتبته من الاستطاعة (3).

بل قد عزم النبي ﷺ في ذلك عزمًا شديدة على المسلم؛ أن
يتجرد للأمر المعروف والنهي عن المنكر كلما حضره؛ قال
عليه الصلاة والسلام: "إِنِّي لَعَلَّ اللهُ يُسَأَلُ العَبْدُ يُومَ القيامة

(1) متفق عليه.
(2) رواه مسلم.
(3) الفجور السياسي: ن. ذلك مفصلًا في المقدمة الرابعة من الكتاب (27 إلى 36).
منشورات الفرقان الدار البيضاء: 2000 م.
الدعوة إلى الخير

حتى يسأله: ما يمكنك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله العباد
حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس» (1). فالمسلم المستقيم لا يمكن إلا أن يكون داعية إلى الخير. تلك صفته فردًا، وجماعة؛ إذ الرابط الاجتماعي القائم على الشهادات في الإسلام يقتضي ذلك بداهة.

قال تعالى: "آوَّلَا الْمَوْلِيَّةَ وَأَخْبَرْنَاهُ بِالْإِثْمِ وَالْغَنِيَّةِ بِالْمَغْفُورِ" صلى الله عليه وسلم وَأَوْلِيَاءَك سَّبَرُوا مَنَّهُمْ رَبُّهُ إِنَّ اللَّهَ عَرِيضٌ حَكِيمٌ» (النور: 76)، فجاءت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المؤمنين، مقرمة بإقامة الصلاة وإياء الزكاة وطاعة الله ورسوله، وكل ذلك جاء نتيجة الموالاة في الله.

تلك صفتهم قبل التمكين في الأرض، وتلك صفتهم بعد التمكين، إذ الدعوة إلى الخير هي غاية ووسيلة في الوقت نفسه، تمامًا كما تحدثنا عن الصلاة. فالَمجتمع المسلم لا يقوم حقيقة إلا بالدعوة إلى الله وسيلة: قال تعالى: "أَذُوْى إِلَى سَبِيلِ رَبِّك بِلِيْكَةَ وَالْمَوْعِظَةَ الْخَيْبَةِ وَحَدِيدَ لَهُمْ إِلَّا أَحْسَنَ إِلَّا رَبُّكًَ - هوَ أَعْلَمُ بِأَلْمَاهُمْ (2) (النحل: 125). وإذا قام كان من أهم خصائص الدعوة إلى الله غاية، إلى جانب

(1) رواه أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (1818).
الصلاة والزكاة على سبيل التلازيم. فتدير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَنَا نَزِيِّحِيْنَ يَأْمُرُونَا َلاَّ نَصُرُّوهَا وَأَمَرُونَا َمَعْمُوُّرُونَ وَمَعْمُوُّرُونَ أَنْ يَغْلِبُوا عِندَ الْمُسْلِمِينَ وَلَّيْ يَغْلِبُوا عِندَ اللَّهِ وَلَّيْ يَغْلِبُوا عِندَ الرَّحْمَٰنَ الْمُعْلُومِ (الْحَجّ)﴾ [41].  

ومن هنا رسم الله سبيل الرسول ﷺ صراطًا مستقيماً، يتبعه عليه كل المسلمين، قوامه الدعوة إلى الله على بصيرة، وهي سبيل ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل، مستقرة كذلك أبداً. قال تعالى: ﴿قُلْ هُذِهِ سَبِيلِي أَذَرْنِي إِلَى اللَّهِ بِصِيرَةً أَنَا وَمَنْ أَتَبَعَنِي وَسَبِّحَنَ اللَّهَ وَمَا أَنَا إِلَّا مُتْحَدِثُكَ﴾ [يُوسف: 108].  

فقوله تعالى: ﴿هَذِهِ سَبِيلٌ جُهَّالةً اسمية دالة كما هي عند النحاة والبلاغين على الشبات. روثتها هو على ما جاء بعد تفسير السياق: ﴿أَذَرْنِي إِلَى اللَّهِ بِصِيرَةً أَنَا وَمَنْ أَتَبَعَنِي﴾ [يُوسف: 108]. الآية، وجاء تفسيرها جملة فعالة للدلالة على الحركة، وفي ذلك إشارة إلى ما ذكرناه من خصوصية الدعوة اللازمة للجماعة الإسلامية، قبل التمكين وبعده، وأنها صفة تابعة لإسلام المسلم، متى تفاعل مع إسلامه، واستقام عليه.  

ومن هنا أيضًا جاء أمر الدعوة والإصلاح مقرورًا بالأمر بالصلاة، في غير ما آية من القرآن الكريم. وذلك على نحو ما في وصية لقان الحكيم لابنه، في حكاية الله عنه من قوله تعالى: ﴿بَنِيَّ أَقِيمُ الصَّلَاةَ وَأَمَرَ أَنْ يَعْبُدُوا عِينَهُ وَأَنْ تَحْكُمُ وَأَنْ يَعْبُدُوا عِينَهُ وَأَسِرُّ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأَمْوَى﴾ [لقان: 17].
وقال ﷺ في وصف جليل لمؤمني أهل الكتاب، تناسق فيه جمال تلاوة القرآن قيامًا بالليل؛ مع جمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والممارسة في الخيرات: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قلعة يُلقون عابدين لله تعالى أئمتها وهم يسبدون إياه ويلتوي في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ (المثاقف) [ آל عمران: 113 - 115].

وترتب من سنته تعالى في الخلق أن كان أمنهم الموجودي والنفسي والاجتماعي؛ مرتبة باستقامة أحوالهم: وذلك الثبات على الصلاة، والصبر عليها، وحفظ البيئة الدينية الموفرة لظروفها؛ بالإصلاح والنهي عن الفساد. فإذا اختلت تلك الشروط اختل الأمن الوجودي للأمة.

قال تعالى يعرض صورة شاملة لإحسان التدين: ﴿وَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أَمَرْنَا بِإِلَهَيْنِ ۖ ءَايَاتَنَا ۖ ۙ وَلَا تُبْحَثُوا عَنْ أَمْرِنَا ۚ ۚ وَسَوْفَ نُحْصِنُكُمْ وَنَحْضِرُكُمْ ۚ وَسَوْفَ نُعَزِّكُمْ ۚ وَبَعْضُكُمْ أَخْرَجَنَّهُم مِّنْ أَخْرَجْنَاهُم مِّنْ قَبْلَهُمْ ۚ ۚ وَالَّذِينَ يَجْعَلُونَ ٱلسَّفَرَى ۚ وَمَا ۚ وَمَا سَمَّى رَبُّكَ ۚ ۝ وَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ [ هود: 114 - 117].
نبصرة:

لا أن لنا هاهنا قاعدة مشهورة عند العلماء، وهي: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعوة إلى (الخير) أولًا. والخير كل خير هو معرفة الله، فكل معروف إذا كان كذلك من حيث هو يؤدي إلى معرفة الله، أو هو عين معرفة الله، وكل منكر إذا كان كذلك من حيث هو جهل بالله، فإذا اتفق أن كان أمر بمعروف ما؛ ينتج عنه منكر أكبر منه، توجه حينئذ وجب ترك الأمر بذلك المعروف.

وذلك إذا كان نهي عن منكر ما يؤدي إلى ما هو أقطع منه؛ توجه وجب ترك ذلك النهي، إلى حين، كما قرره الإمام ابن تيمية رحمه الله في قوله: (وجاع ذلك داخل في القاعدة العامة: في إذا تعرضت المصالح والفساد، والحسنت والسيئات، أو تمزجت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها (...). فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنًا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فنظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من الفساد أكثر، لم يكن مؤمومًا به، بل يكون حرمًا إذا كانت مفسدة أكثر من مصلحته (1)). وربما كانت الوسائل المستعملة في ذلك سيئة، أو اختيار العبارات غير موفق، أو نحو ذلك من وسائل تحقيق المناط الفاشلة إبتداء، مما لم يراع فيه الزمان وأهله، يؤدي إلى عكس النتائج المرجوة.

(1) كتاب الاستقامة: (٢١٨/٢)، ومجموع الفتاوى (١٢٩/٢٨).
وذلك كانت الآية المشهورة على ألسنة الدعاة: «وَلَتَكُن مَا نَعُونَ إِلَّا الْخَيرَ وَلَا نَتَّفَعَلْنَ بِالْكَذِبِّ وَلَا نَفَخُونَ عَنِ السُّنُكَرْ وَأُولَاهُمْ هُمُ الْمُفِيْحُوتُونَ» [آل عمران: 114]. من ألفت الإشارات إلى هذا المعنى العجيب، الذي يجعل المرء يضع نصب عينيه تحقيق مفهوم (الخير) أولًا، فلا عبيرة بالآخر بالمعروف والنفي عن المنكر إن تحقق الداعي من أنه يخطئ به الوصول إلى الخير. وإنها الخير - كنا قلنا - هو التعريف بالله. هذا معنى عظيم من أسرار كتاب الله. فتدبر.

وعليه، فقد جاءت الآية في سياق امتتان الله على المؤمنين بنعمته الإسلام، والتأليف بين قلوبهم، وإنقاذهما من النار، وإرجاع الفضل في كل ذلك إلى الله. فاقرأ السياق كله وتدبر، ثم أنصئ إلى قلبك: «وَيَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا آنَّا لَيْتُوا اللَّهُ حَقَّ نَقِيلَهُ. وَلَا تَدْخُلُوا بَيْنَهُمْ كُثُرًا. وَلَا تَتَحَذَّرُوا وَلَا تَكُونُوا مِنِّي صَبِيحِيَانَ وَلَا تَكُونُوا كَأَنْ تَضَرَّعُوا وَإِنْ تَفْتَرَى الأَمْعَاءُ عَلَى شَفَاعَةِ حَبْرٍ فَتَأْتِمُ بِهِ فَأَصْبَحُ عَنْهُ مَعْمَيْنَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يُؤَيِّدُهُ اللَّهُ وَأَنْتُمْ قَاصِدُونَ إِلَى الْخِيَامِ وَأَنْتُمْ عَلَى رَيْءِيْنِينَ وَأُولَاهُمْ هُمُ الْمُفِيْحُوتُونَ» [آل عمران: 105-106].

إِنَّهَا أَيَّاتٌ تُشْدَعُ إِلَيْهَا رَحْلَ المُصْلِحِينَ الرَّبَّيْنِ. فَأَبْصِرِ!}

ألا ما أبعد واقعنا المنحت عن سعاداتها العالي الرفيع! فالدعوة
إن لم تراع أصل الافتقار بحيل الله، وعدم التفرق عنه، ولم تضبط بقصد النجاة من النار، للداعي والمدعو سواء؛ كانت منحرفية عن الخير، وإن كانت في ظاهرها (أمرًا بمعروف ونهيًا عن منكر)، فلا قيمة لهذا إلا إذا صار إلى خير. فتدبر! ثم أبصر!

ولتجعل خالقنا كلامًا بما نقله الله في سورة (فصلت)، ذات (القواعد العشر)، إنها خلاصة القول فيه، وجامعه. فقد فصلت المنطلقات تفصيلاً، وحددتا الغايات تحديدًا، وضبِّعت الوسيلة ضبطًا، إنها منهج متكامل بذاته في الدعوة إلى الله.

وإن الناس اليوم لو أخذوا بها وحدها في هذا الشأن لكففتم. أقراؤها أولاً، ثم لاتعاون معًا على تدبرها ثم إيصارها آية آية إن شاء الله؛ عسى أن نصل إلى رسم منهاج قرآني للدعوة إلى الله.

قال تعالى: «إن الدعاية قالوا رَبْنَا أُنتَ اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقْتَمْرْنَا تَحْتُمَّ الْمَلَائِكَةِ أَلَّا تُحَذَّوْنا وَلا تَهْزُوْنا وَلَنْ نُنَسِّكَا إِلَّا إِذَا كَصَمْتُمْ» (البقرة) 221. «وَلَنْ نُقْلِعْنَ عَنكُمْ رَحْمَةً وَلَنْ نَبْذِعْنَهَا إِلَّا إِذَا كَسَبْتُمْ وَلَنَبْذِعْنَهَا إِلَّا إِذَا كَسَبْتُمْ» (البقرة) 222. «وَلَنْ نَحْسُنَ قُولًا مَّنْ دَخَلَ إِلَى الله وَتَحْذِرَهُ وَلَنْ نَمُنْهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَنْ نَمُنْهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ» (البقرة) 223. «فَدْعِيْهِمَّ لِلْهٍ وَلَأْتِهِمْ بِالْمَبَارِكَةِ وَلَأْتِهِمْ بِالْمُصَلِّيْنَ» (البقرة) 224.
هذه هي القواعد العشر في الدعوة، فاعقد أناملك يا صاحب كأ تفعل عند إحساء الأشياء، وأحرص معي أصوحكا من خلال هذه الآيات واحدة واحدة، وتدبر! 

تبصرة: القواعد العشر في الدعوة إلى الله:

1. {إِنَّ الَّذِينَ قَالُواَ رَبَّنَا رَبَّكُمَا إِلَّا اِيَّاكُمْ}

2. {ثُمَّ أَسْتَفَنْنُوْا}.

3. {سَنَّرِئُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا الْقُلُوبَ الْمُتَّخِدَةَ أَلَّا تُنَادُواُ وَلَا تَجْرُّوْا}.

4. {وَمَنْ أَحْسَنَ فَوَلَّدُ مَنْ دَعَاهَا إِلَى اللَّهِ}.

5. {وَعَجَّلَ صَلَاَحُهَا}.

6. {وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

7. {وَلَا تَثْنَأْيَ اللَّهِ وَلَا تَشْفَعْنَهَا}.

8. {أَذْلِقُ وَالَّذِي أَحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنُكُمْ وَبَيْنُهُ عَذَابُ اللَّهِ وَجَنَّةَ حَيْبَاءٌ}.

9. {وَمَا يُبْلِقُهَا إِلَّا أَلَّذِينَ صَبَرُوا}.

26-30}
10 - {وَأَنَّا يُرِيدُونَ إِنَّكَ أَنْ تُحَزِّبَنَّهُمْ فَأَسْتَجِبِي لِلَّهِ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَهِيرُ}.

هذا هو الظاهر الجلي، ولكن يجوز أن تجد أكثر، فالقرآن بحر زاخر بالكنوز، لا يصح فهمه إلا الله جل وحupal.

* نبضة:


(1)
الدعوة إلى الخير

محمد ﷺ! عُش بهذا المنطق، وبهذا الشعور واعترض به، ولا تحجل! »إِنَّلَكَ عَلَى ٌصِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ« [الرخص: 42]، إنه مبعث الفخر إذا افتخرت الأمم بتفاهاتها المادية، و خُزُوبِها الفكرية، هذا دين رب الكون كله فاعترض به، »وَلَهُ الْأَمْرُ« [المائدة: 4].

»إِنَّ الْيَزِيدَ قَالَواُ رَبِّنَا أَلْهَٰكُمْ«، تلك هي القاعدة الأولى، فاحفظها بوجدانك، فقد جعلها الله أول شرط الفلاح، فاعرف ربك وعرف به، على ما فضلنا في البلاغ الثاني من هذا الكتاب، تكن قد قلت: ربا الله.

* تبصرة:

وأما القاعدة الثانية: فهي الاستقامة على قوله ربا الله...

»ثَمَّ أَسْتَقَمْنَا«، أي: الالتزام بها أقررت، والوفاء بما شهدت به على نفسك، وشهد به عليك الله، والملائكة، والناس أجمعون. ذلك صراط مستقيم أقررت به، فاستقام عليه عقيدة وسلوكًا، ظاهرًا وباطنًا، خوفًا ورجاء؛ تكن من الصادقين.

ذلك أن الاستقامة على توحيد الله - معرفةً وتعزٍ - في ربوته وألوهية، وما تفرع عن هذه وتلك، من معان رفيعة سامية، كعبادته تعالى بها له من أسماء حسنى وصفات عُلِيّ، إبانًا لها، ودعاء بها، وسيراً إليها في أئوالها. كل ذلك وما في معناه من مقتضياته يجعله مسألة حقًا، ويجعل وعد الله فيك من الأمن في الدنيا والآخرة. وبيانه كا بيل:
الدعوة إلى الخير

* نبض:

القاعدة الثالثة: التبشير وعدم التنفير، وذلك ببناء الكلام في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ على قصد تحب العباد في رب العباد. إذ على ذلك ينبغي مفهوم الخوف والرجاء. انظر كيف بشر الله من استقام على ذلك بالجنة وبالولاية الربانية الحقة، والنجاة من غضبه وعذابه. إنه شعور جميل جدًا. شعور بالأمن الروحي، والسلام الوجداني، يفيض بالقلب المؤمن الصادق. إن العبد ليجد جمال الكرم الإلهي في نفسه، ونور رحمته ينبعث من صدقة، في توجهه وسيره إلى الله، مع خوفه من زوال ذلك، مما ينشط حركة قلبه، وسرعة إقباله على ربه رغبة ورحبًا. 

(البشرى) هي أعظم ما يجب الإنسان أن يسمع في حيته. وهي أرفع منازل الدعوة إلى الله، وأرقاها غادة ووسيلة. إلا أنه معلوم شرعًا وعقلًا، أن البشرى لا تتحقق؛ إلا إذا لا يسوا خوف عدم حصول المرتقب.

فالتخويف أساس لتحقيق التبشير؛ ولذلك قلنا ذكر الترغيب في القرآن إلا وذكر معه الترهيب. فهذه حقيقة متلازمتان. إلا أن ضابط ذلك وقائعها هو التحبيب. أي لا يجوز أن نُقْرِط المراء في أحدهما، أو يُقْرِط؛ بما يؤدي إلى تنفير النفس عن المقصود، وتقيسها من الله والعباد بالله. بل يجب أن يكون التخويف على قدر ما يحب العباد في رب
العباد، فهاهنا ميزان من الحكمة قل من يحسن من الناس؛ ولذلك قال ابن القيم رحمه الله في عبارة جامعة: ( ويندرج الخوف والرjawة في الحب ) 。

فأجعل التبشير بالخير في الدنيا والآخرة جوهر خطابك للناس، وأجعل النذارة له مصدقة؛ حتى لا تتهاكل الأنفس، وتتراخي عن أداء حق الله. واقصد إلى تعريف الخلق بالله فإنه إن عرفوه حقًا أحبوه؛ فتعلقوا بعبادته آنذ خوفًا وطماعًا.


ومن ألفاظ النصوص في هذا المعنى ما صح عنه أنه قال: « إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمي سبقت غضبي » (3). فهذا رب العالمين يعلمنا أن نجعل خطاب الرحمة سابقًا في دعوتنا، ونجعل لذلك النذارة خادمة للبشارة؛

(1) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (124/1) ظريف دار الكتب العلمية بيروت، تحقيق: زكرياء علي يوسف.
(2) متفق عليه.
(3) رواه مسلم.
(4) رواه البخاري.
لأن الكل مشمول بقصد المحبة. وما أجمل وصف الله لرسوله ﷺ، في ذلك، وهو سيد الدعاء إليه: «أَلَمْ نَحْكُمْ رَسُولَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِنَّ الْمَيْنَةَ عَلَيْهِ مَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا أَنْزَلْتُ لِلَّدْنَاءَ السَّامِرِيَّةَ» [البقرة: 128]، فأشد الناس خوفًا من الله هو أشدهم حبة له. بهذا المنطق وجب أن تبني خطاب الدعوي باصاح، فإنا تفرد النذير في موطن من الكتاب والسنة إلا لحكمة خاصة.

* تبصرة:

القاعدة الرابعة: الدعوة إلى الله لا إلى ذات الهيات والمنظفات. تدبر قوله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنَ وَقُولًا يَصِيِّرُ دَاوُدًا إِلَى اللَّهِ» [فصلت: 32]، فهو أول متفرع عن (قوله) الأول: «قُلُوا رَبَّنَا اللَّهُ»، وفي سياقه. فإعلان التوحيد بالتعرف على الله والتعريف به، أمر متضمن لما نحن فيه: (قول الدعوة إلى الله) فليس الداعي الحق إلى الله إلا معرفًا به؛ ولذلك كان هذا أحسن ما علنه العبد في طريق عبادة الله في الأرض: «وَمَنْ أَحْسَنَ وَقُولًا ...» [فصلت: 33]، ثم هو (دعاء إلى الله) على غرار قوله في سياق آخر ما سبق بيانه: «قُلْ هَذَا سِيْرِيُّ أَذْهِبْ إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بِصِيرُوتِي أَنَا وَمَنْ أَنْتَحُنُّ وَسَبِحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنِّ أَنْتَحُنْ» [يوسف: 108]، فهي دعوة إلى (الله) جل جلاله وجلاله، توحيدًا وتفريدةً وتجريدًا، رغبة ورهبة، فتدبر! لا ضر أن تنظم عملك ضمن أي تنظيم دعوي.
ما دامت أصوله العقدية سليمة، وما دام منهجه الدعوي مستقيماً على الكتب والسنة، ولكن احذر أن يختلط عليك الأمر، فتدعو الناس إلى التنظيم بدل دعوتهم إلى الله، فتكون قد أخذت التنظيم آنذاك وثناً يعبد من دون الله الواحد القهار.

اجعل الله غايتك على كل حال. واتخذ هذه هدفاً لدعوتك:

تعرف عليه وتعرف به؛ تكن أحسن القائلين في الدين.

اجعل تنظيمك أو جامعتك خادمة لله، ولا تجعل الله غاصباً لتنظيمك أو جامعتك، وأحذر! فهذا منزلق قلبي يسلم منه أحد من المتحزبين. فتدبر!! تلك لطيفة من لطائف قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا الَّذِينَ يَعْقِلُونَ» (التوبة: 32)،

وقد فصلنا الكلام في هذا المعنى بكتابنا (البيان الدعوي)، معززاً بأدله الوافية هناك، فارجع إليه إن شئت، والله الهادي إلى الحق، ولا حق سواء.

* تبصرة:

القاعدة الخامسة: في أن العمل الصالح أساس الدعوة إلى الله، وعلى رأسه الصلاة. ولذلك قال: «وَعَمِّلَ صَلِيحًا» عطفًا على إحسان القول. فلا قول حسن إلا إذا ابتني عليه عمل صالح، ثم ابتغي عنه عمل صالح. فويل لمن ناقض أعمال ما أظهر للناس من أقواله. إن الاستقامة التي اشترطت على الذين قالوا ربنا الله هي هنا قد سبقت مسألًا
دعوًا ظاهرًا، بمعنى أنه يجب أن تنتبه إلى أن الداعي إلى الله يدعو بقوله ويعمله، كأن المفتى يفتي الناس بقوله ويعمله شاء أم أبى. فسلوكك الفعلي مناط اتباع، تلك سنة الله في الخلق. فاجعل عملك صالحًا حتى تكون به مصلحًا؛ وياجرك الله مرتين.

* تبصرة:

القاعدة السادسة: إعلان الانتهاء لكل المسلمين، والحرص على عدم تفريق وحدتهم العامة. (وقال إنها من المسلمين ف من) هذه تفيد التبعيض كأنه هو معلوم عند اللغويين، والمعنى أنك واحد من المسلمين، جزء من كل ف الدعوة إلى الله هي دعوة إلى الله، وانتهاء عام لكل المسلمين. وفي ذلك راحة من مضايق الهيئات والجماعات، فإنه أجمل أن تعين أبا الداعي إلى الله إذا سئلت: (من أي جماعة أنت؟) فقول: (من المسلمين) إذ ذلك الحق من رب العالمين، (فماعداً بعده ألحق إلآ الأضل ولأضفر) [يونس: 32].

* تبصرة:

القاعدة السابعة: (ولادسِنَوْيُهْ أَحْسَسْتُو نِّيَابًا أَسْتِيَتْهَا) ، هذا مبدأ ثابت من مبادئ القرآن، فثبت عليه، لا يستوي الخير والشر، لا يستوي الحق والباطل، لا يستوي المعروف والمنكر، لا يستوي الكلام الطيب والكلام الشهير. ونتيجة
الدعوة إلى الخير

ذلك دعويًا: لا تستوي الدعوة إلى الله بالتي هي أحسن، والدعوة إليه بالتي هي أحسن. لا تستوي في ميزان الله من يقرب الناس من الله ويعملنهم بجاهله وجلاله، ومن يضرفهم عنه ويجهلهم بقهره، وإن ظن أنه بذلك يحسن صنعًا فلا تغره! هذا كتاب ربنا واضح في المسألة وضوح الشمس في رابعة النهار. وتلك سنة نبينا قاطعة بأن المنهج الدعوي الإسلامي إنا هو ما اتسم بالحلم والآثة، والتسير على الناس في طريق تعريفهم بحقوقهم يحق
الثابت أبداً: "ولا تسنتى أحسنُها ولا أشنيها".

* تبصرة:

القاعدة الثامنة: دفع الشر بالخير. وهي تفسير للقاعدة السابقة، وي بيان لها، وتحقيق خاص لمناطقها العام: "آدعْ نَيَّئَىٰ هُوَ أَحْسَنْ فَإِذَا أَلَيْتَهُ بِيَدِهِ عِندَكَ عَدْوَاهُ، مُّجْرِمَةً"، فالعلاقة بين القاعدةتين، هي العلاقة بين المبدأ الكلي والتطبيق الجزئي، كما العلاقة بين المطلق والمقيد، وذلك مثلًا حيث يواجه الك험وم في الدعوة إلى الله من أهلك وعشيرتك، أو حكومتك، أو يحاصروك؛ فاقتاد برسول الله ﷺ، ولا تلفت إلى غيره، إياك أن تغلب الرغبة الجائحة في الانتقام؛ لا يستفزك تحرشهم، ولا يثيرك جهلهم وعنتهم، خاصة وأن مناط الأحكام في الدعوة في هذا الزمان غالب أمره أنه ينزل في بلاد المسلمين، ويغطاها من يشهد أن لا إله إلا الله.
الدعوة إلى الخير

وأن محمد رسول الله. فكيف تنزع إلى العنف الجاهلي؟ حاشا الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الإسلام، إنك إن تفقد منهج القرآن، وتخطئ سنة الرسول في الدعوة إلى الله؛ تفقد صفة الداعي إلى الخير. والله أمكن أن تدعو إلى الخير، كما بينت لنا الآية قبل: «ولكن الذين ينتمون من السَّاحِرَةِ يَدْعُونَ إِلَى الْأَفْقَهْ» [ال عمران: 104]، وتفقد صفة الداعي إلى الله، فلا تكون داعية إلا إلى نفسك.

حذر من التشنج، حذر من الغضب لنفسك. ما دمت قد جعلت نفسك الله فاجعل الكل الله، ولا تتحرك في الدعوة إليه تعالى إلا إذا تقدر أنه الله. «أَذْٰعُ إِلَيْهِ هُنَاكَ أَحْسَنُ فَإِذَا أَذَّنَ يَنْبُك وَيَبْنِيُّهَا عَدَاوَةً كَانَهُ وَلَكُمْ حِمَامُ» [فصيلة: 121]. تلك مقدمة مسلمة في منهج الله، نتيجتها واضحة حاسمة، هي: «إِذَا أَذَّنَ يَنْبُك وَيَبْنِيُّهَا عَدَاوَةً كَانَهُ وَلَكُمْ حِمَامُ» [فصيلة: 124]. تلك هي الحكمة المذكورة بوضوح في قوله تعالى: "أَذْٰعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّي بِبِلَامِهِ وَالْمُوصَطَّةِ 핤ْسِتُ وَحَسَبْنَاهُ بِأَيْتِي هُنَاكَ أَحْسَنَ إِنَّ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِ النَّاسِ" [النحل: 125]. عجيب كم ضل كثير من الدعاة - مع الأسف - عن منهج الله؟ لما هجروا القرآن إلى غيره من الأهواء، مستجيبين لردود الأفعال. ألا ما أوضح القرآن، لو بسرون. «وَلَفَّدَ يَتَّرَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكِّي فِي هَلِّن مَتْرِكَ» [القمر: 17]، ولكن الضلال عمى. اقرأ مرة أخرى. وتدبر: "أَذْٰعُ إِلَيْهِ هُنَاكَ أَحْسَنُ إِنَّا أَذَّنَى"
الدعوة إلى الخير

{ نص 24 }، ذلك هو الأصل في النهج الدعوي، وما سواء جزئي حادث، ولكن حادث حديث. وإنها الغاية عندنا في هذا الكتاب تفريع الأصول.

* تبصرة:

القاعدة التاسعة: في الصبر على الأخذ بالنهج القرآني. ذلك أنه يحمل النفس في معاشرة الناس على ما تكره، من تحمل الأذى في الله، ودفع الشر بالخير، ودفع الجهلة بالحكمة والوعظة الخصية، ودفع العداء باتى هي أحسن كل ذلك شديد على النفس؛ لأنها جبّت على محبة ذاتها، والانتقام لها؛ ولذلك قال في القاعدة التالية: { وما يُعْدِّلُهَا إلاَّ أَلَّذَينَ صَبَرَانِ وَمَا يُقَدِّمُانِ إِلَّا ذَوٌّ حُكْمَ عَظِيمٍ } { نصت 35 }، فدرّب نفسك على الصبر حيث يحب الصبر، وعلَّمها كيف تكبح جحدها؛ حتى لا ترد الجهل بالجهل، والشر بالشر، فتزين عن الصراط المستقيم.

* تبصرة:

القاعدة العاشرة: الحذر من الشيطان. وها هنا لطيفة من اللطائف، ذلك أن بعض المسلمين قد يغيب عنه في فتنة الانغياش الاجتماعي؛ أن الشر من الشيطان. حقيقة كبرى قد تنسى. اذكر هذا جيدًا وجدّ إياهك به، إن الشيطان
الملعون خلق من خلق الله، بل هو شر خلق الله، خلقه
الحكمة الإبتهال، إنه ليس وهمًا ولا خيالًا، إنه حقيقة، إنه
يسعى لتضليل عباد الله، وأنت واحد من يستهدف الشيطان
بغوائه، وكل الناس معرض له. فتذبذب... يجب أن تعرف
الشيطان وحيله الخبيثة، فالمؤمن الكيس الفطن هو من
يسأل عن الشر خفية أن يلحقه، فاسأل عنه حتى تعرفه.
فإنك إن تجلبه تقع في أحضاره. والله عرفنا به في غير
ما آية من القرآن، فقال تعالى: «يَبْنِي إِلَيْهِمْ أَمَّةً لَا يَظْهَرُونَهُمْ أَلَّا يَلْهَبُهُمْ سَوْءَ أَبْيَاضُهُمْ وَدِيبَابَاتُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا نُرَاهُمْ إِذَا جَعَلَنَا الأَشْيَاتُ أَوْلَيَةً لِلَّذِينَ لَا يُبْصِرُونَ» [الأعراف: 27].

وقال ﷺ في وجب اتخاذ الشيطان عدوًا: «إِنَّ الْشَّيْطَانَ لَيْكُن
عَدُوًّا فَأُخْذَوْهُ عَدْوًا إِنَّهُ يَذْهَبُ إِلَى جَزِيَاءٍ، يَكُونُ عَمَّا أَحْصَرْنَاهُ السَّيِّئَى» [فاطر: 6].
وقال: «لَعَمَّى الْحَيَّةِ وَقَالَ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْ عِبَادَةٍ صَبِيبًا مُفْرَوًّا أُلُولَى عَدُوٍّ» [الكافرون: 18].
وقال الله ﷺ: «وَلَاتَيْنَ مِنْ أَلْفِيْهِمْ وَلَا مَرَّةٍ مِنْ أَلْفِيْهِمْ فَلْيُقَدِّسُنَّ حَتَّى تَقْدِسُوهُمْ وَلَا يَعْلَمُهُمْ وَلَا يَعِيْضُهُمْ وَلَا يُبْدِيهُمْ وَلَا يَجَيَّدَوْنَ عَنْهَا حَيْثُ كَيْبَصَّةً» [النساء: 118-121].

اعرف عدوك تنتصر عليه!

اعرف الشيطان؛ حتى تعرف طبيعة العلاقة بينه وبين
المسلم عمومًا، وبينه وبين الداعية إلى الله خصوصًا. إنك إذ تدعو إلى الله تقوم بهدم ما بنى إيليس اللعين؛ فتزيد عداوته لك أضعافًا مضاعفة، ولكنك إن اعتصمت بالله واستمعت به لن يصل إليك، فلا سلطان له على عباد الله الصالحين.

إن أسلماً ما يمكن أن يرعرعه في قلبك هو أن يشغلك بالحسن دون الأحسن، فإذا استجبت له نزل بك دركة فدركة؛ حتى يجعلك من الغارين، ومن هنا قال جبريل: "من بعد ما أرسى قواعد المنهج الدعوي: "وَإِنَّا بِرَكَانِكِ نَسِيَّنَانَرْقُّ فَأَسْتَعْدَىَ يَأْتِيهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [فصل: 26] ، لقد كان السياق في الحضير الصبر، والثبات على منهج الدعوة بالتي هي أحسن، وعدم الاستجابة لاستفزاز خصوم الدعوة: "أدفع باللّهِ هٰوَئِي أَحْسَنُ فَإِذَا أَلَّهُ الَّذِي يَبْنِى وَبَيْنَهُ عَدْوَةً كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَمِيمٍ وَمَا يَلِمْهَا إِلَّا الْأَلْزَمَ مِنْهُ وَمَا يَلِمُّهَا إِلَّا دُوَّرٌ حَظِّيَّ عَظِيمٍ"، فقال بعد ذلك مباشرة: "وَإِنَّا بِرَكَانِكِ نَسِيَّنَانَرْقُّ فَأَسْتَعْدَىَ يَأْتِيهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"، ففجاءة القاعدة العاشرة في الاستعاذة من نزع إيليس اللعين: خاتمة لمبادئ القواعد العشر، في المنهج القرآني للدعوّة؛ حتى يستشعر الإنسان استقامة ما هو عليه من صراط، وصواب ما سار عليه من سبيل، وأنه ماض في ذلك على بصيرة يدعو إلى الله. فماها حصل من اختلال طارئ، أو ابتلاء سابق؛ فثبت على منهجك لا تغير ولا تبدل، ما دمت تنهل من القرآن، كتاب
الله رب العالمين. وكلما ألقى الشيطان في روعك من الوساوس ما ألقى؛ فَأَاذَّنْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ أَسِمَّيُ اللَّهِ الْعَلِيمُ

تلك بلاغات القرآن العملية التي رسمها الله لعباده صراطًا مستقيماً، فما بقي الآن إلا ضابطها العام، وقانونها الكلي؛ لضمان توقيعها في واقع الحياة بصورة نموذجية؛ سيرًا إلى الله وسلوكًا إليه تعالى، وهو البلاغ السادس.

***
لا سبيل إلى كل ما ذكر من بلاغات قرآنية إلا عن طريق اتباع البلاغ: محمد بن عبد الله، رسول الله إلى العالمين، هذه عقيدة، بل أصل من أصولها الكبرى، وكلي من كلياتها العظمى، لا استقامة لشيء من ذلك كله إلا به، وإن شئت فقل: هذا هو البلاغ القرآني الجامع، والضبط الكلي المعن. قال الله تعالى: {وَمَا آتَيْنَاهُ الْرَّسُولُ فَحَصَدْنَاهُ وَمَا نَهْجْنَاهُ عَنْهُ فَانْثِبَوا وَاتْبَعُوا إِنَّ اللَّهَ سَمِيدٌ الْيَمِينِ} [الحجر: 7] وقال سبحانه: {فَلِيَتَحْيَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يُحْيِي وَيُؤْتِيُّ نَصِيرًا} [النساء: 13]. فقل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكفرين [آل عمران: 31].

والنصوص القطعية في هذا المعنى كثيرة.

فهذا أمر لا ياري فيه إلا جاهل بحقيقة الإسلام، أو من لا يبان له بآملًا.
إذن؛ كل حديثنا مما كان قبل، لا يمكن تحقيق مناطه، وتصور تطبيقه إلا من خلال السنة النبوية، وقال النبي ﷺ في هذا واضح ووضوح الآيات: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» (1). لا نقاش في هذا، وما هو بحاجة منا إلى تقرير أو ترقيم. وإنها الحاجة في بيان طبيعة الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام: كيف؟ هذا الذي تخطيطه كثير من الناس.

وقد هو مربط الفرس، وبيت القصيد. كيف تتبع السنة؟ وكيف نتأسس بالرسول ﷺ؟ ذلك أن كثيرًا من المتدينين اليوم يسيء للسنة من حيث هو يزعم أنه متبوع للسنة، ويحجب السنة من حيث هو يظن أنه ينافح عن السنة. وتلك أم المصائب؛ إذ يصنع الإنسان عكس ما يعتقد أنه يصنعه، لقد اقتصر كثير منهم في السنة على منهج التعلم دون التركية والتحلم، فضلوا وأضلا. تذكر قول الله ﷺ: «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يشعلوا عليهِ إياكم، ويرسِلُهُم ورسِلُهُم الكتب وصالحهم وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» [آل عمران: 114]. وقاله ﷺ: «هو الذي بعث في الأنبيؤين رسلًا من أنفسهم يشعلوا عليهِ إياكم، ويرسِلُهُم ورسِلُهُم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» [الجامعة: 2].

(1) رواه مسلم.
تبصرة:

إن النبي ﷺ بتلاوته القرآن على المؤمنين، ومدارسته معهم;
يقوم بعملتين اثنتين لا واحدة: ( التزكية والتعليم )، فاقرأ الآيتين وتدبر.. فعجباً، كيف فهم بعضهم من اتباع السنة والتآسي بها مجرد استهار بعض الأحاديث، دون الرحيل إلى أخلاقاتها والتزكي بمقاصدها، والانتقال إلى منازها؟

أما التعليم: فهو للحلال والحرام وسائر أحكام القرآن وفقه السنة، وأما تعلم ما تحصل به الكفية من ذلك لعبادة الله، والالتزام بحدوده؛ فهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، في كل ما يهمه من شؤون العبادات والعواملات.

وأما التزكية: فهي التطهير للنفس والتربية لها، «فقد أنحل من زكاه» (5) و«قد حلب من دسَّها» (الشمس: 9، 10)، فالرسول الكريم كان حريصًا على تطهير صحته من الأهواء، والارتقاء بهم عبر مدارج الإيمان، إلى ما هو (أحسن عملًا)، من مثل قوله لعبد الله بن عمر: (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل). (1)

وانظر - رحمك الله - كيف ذكر ( التزكية ) قبل ( التعليم ) في الآيتين، مع أنه لا تزكية بغير تعليم ابتداء، على ما ترجم له الإمام البخاري رحمه الله في كتاب العلم من

(1) متفق عليه.
صحابه قال: (باب العلم قبل القول والعمل)، وقد تقدم ذكر التعليم على التركية - بناء على الأصل - في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِمْ رَبَّكَ الْغَدِيرَةَ وَإِنَّكَ لَتُبْلَيْنَاهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْفَتِيرُ الْعَلِيمُ﴾ (البرزة: 129).

صحيح أن العطف بالراو - في الآيات كما هو في العربية - لا يفيد الترتيب، لكن التمييز والتأخير في البلاغة يفيد الأهمية؛ ومن هنا جاءت التركية في الآتيين الأوليين مقدمة على التعليم؛ من باب ذكر المقصد قبل الوسائل؛ لشرف الغاية وعلوها؛ وحتى لا يفتن السائر بالوسيلة عن الغاية؛ فضلا عنها، ويكون من الخاسرين.

تقول لي: وما بالتحلم؟ أقول ذلك أنه ما علم ولا زَكَّى إلا بِحَلَّم، فهو الخاصية العظمى لأنهج التعليم والتركية لديه، كما سترى بحول الله.

والحلم: الرزائة والقياس والرحلة والأنة، وهو ضد الجهالة والسفه، والتحلم: خلق الحلم، وثقله؛ حتى يصير لك خلقًا. ومعنى (اتهاج السنة تنقلاً): التخلق بأخلائه في ذلك؛ أي فيحلم، وصربه على جهالة الناس، وسفههم.

قال عليه الصلاة والسلام: "إنما العلم بالتعلم، و إننا الحلم بالتحلم. ومن يتحر الخير يعطه، ومن يبقي الشر يوقه"(1).

(1) رواه الدارقطني في الأفراد عن أبي هريرة، ورواه الخطيب البغدادي عن عه، وعن أبي الدرداء، وحنان الألباني في صحيح الجامع الصغير: (2328).
تبعرة:

إن الابتعاد العام للرسول ﷺ في كل شيء، إنها مفتاحه التحلم بحلمه.

وهذا - من حيث المعنى - في كتاب الله، فلم تقل عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن؟) (1)، فالعود إذن للقرآن، نبحث فيه عن معنى الابتعاد ومفهوم التأسي، الآية واضحة ظاهرة لكل ذي قلب شهيد، قال تعالى: {لَتَكُمْ لِكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُمُوَّةٌ حَسَنَةٌ لَنْ تَرَجُوَنَّهَا إِلَّا أَجَلًا وَالْجَنَّةُ نُضُرُّهَا كَبِيرًا} (الأحزاب: 21)، وإنها لأية عظيمة، وحكمة بالغة، وصرامة مستقيمة. تذكر هذه العبارة الروحية: {أُسُوَّةَ حَسَنَةٌ} فأما الأسوة فهي التخلق. فالتأسي: اتباع السيرة، والتخلق به كان عليه التأسي به من خلق عام، والخلق هذا هو كل الأوصاف التي كان يوصف بها في سلوكه وعمله، عدا الأوصاف الجبلية، التي لا يمكن اكتسابها بالتأسي ولا بغيره، ووصف الأسوة بـ (الخسامة) دليل على علو شأن الخلق النبوي، وكحال سيرته، وسلوكه العام والخاص، فهو لذلك كان أرقى نموذج بشري للتأسي والتخلق، أليس هو (رسول الله) المصنوع على عين الله، والمنتأدب بأدب الله؟ بلى والله، فإذن من هاهنا يبدأ التأسي والابتعاد، ومن أخطأه هذا المدخل للسنة النبوية فقد أخطأها كلها؛ إذ أتي البيوت من غير أبوابها.

(1) رواه مسلم.
وتلك شهادة الله لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4). تلك هي الأسوة الحسنة; ولذلك قال ﷺ بعد: ﴿لَمْ يَكُنَّ قَبْضَتُهُ اِلَّا اَللهُ وَأَرْضُ اِلَّا اَللهُ كَيۡبِّرُ﴾ (الأحزاب: 21). إذ الخلق الحسن هو باب العمل الصالح، وسبب قبوله، فليس عبثاً أن يصرح الرسول ﷺ بقوله العجيب: (ليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن)، وقاله في نحو هذا أيضًا: (إن أكمل المؤمنين إياها أحسنت خلقًا، وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة). ولذلك فإنه: (لا يكون المؤمن لعانيًا) كيا صح عن النبي ﷺ وقال لعائشة أم المؤمنين: إذ استغربت منه أنه دارى أحد الناس ومن يكرهه: (يا عائشة! متى عهدتي فحاشاً? إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره). والقصة كيا في صحيح البخاري أنه: (استأذن رجل على رسول الله ﷺ، فقال: انذروا له، بس أخو العشيرة! أو ابن العشيرة. فلمدخل ألان له الكلام. قلت: يا رسول الله، قلت الذي قلت، ثم أنت له الكلام؟) فقال لها ﷺ ما قال. قلت: هذا حديث تشهد إليه رجال القلب، ﴿لَمْ يَكُنَّ قَبْضَتُهُ اِلَّا اَللهُ﴾ (1)

(1) رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 5390 و 772.
(2) رواه البزار بن سعد صحيح: صحيح الجامع الصغير: 158.
(3) رواه الترمذي، وصححه صاحب صحيح الجامع الصغير: 774.
(4) متفق عليه.
قلب أو ألقى أسلمة وهو شهيد » [الсерmons: 21]، وإنه والله سر حسن الأسوة، وجمالها في رسول الله، فقد قال: «إنى لم أبعث لعاناً وإنى بعثت رجحه (1). ذلك خلق رسول الله، ذلك خلق القرآن، وهو قول لله تعالى: » فيهما رحمة من الله يبت نينهم لا يغفرون وقلت فظاً غليظ القلب لا يصلوا من حوله كأعف عنهم واستغفر لهم وسقواهم في الأثر، فإذا عصيوه فصول على أنفسهم يحبون الموتى (2) [العمر: 109]، وقوله تعالى: » لقد جاءكم رسول من أ发声كم عذر علي عليه ما عرفة حريص عليه الصمد 발هيمين رحمون (2) [التوبة: 128]، ألا ما أحق الناس اليوم عامة، والدعاء منهم خاصة إلى استيعاب هذا البلاغ القرآني العظيم، ألا وإن من أجهل الجهالات وأقبلها ما بدر من بعضهم - في زماننا هذا - من دفاع وتأصيل للخشونة في الدعوة، والتغنت في الدين! فتعلم من السنة أخي الداعية أخلاق النبوة؛ تكن بإذن الله من الراشدين!

ذلك خلقه الجامع المائع؛ قاطع لكل عبث؛ ومن هنا جعلنا عنوان هذا البلاغ الضابط لكل ما قبله: 1 في اتباع السنة تركية وعليها وتحليها (2)؛ إذ النبي إنها بعث معلماً ومكيًا، وكان كل ذلك منه على منهج الحلم والرفة والرحة والأناة، فصل الله عليه وسلم من نبي حليم، ورسول كريم!

(1) رواه مسلم.
تلك أصول البلاغ القرآني كتابًا وسنة، فما بقي لي ولك إلا تحقيق المناط، والدخول في الرباط، وذلك هو فقه الدين منزلًا على وفق الزمان والمكان، وهو بيان كيف العمل؟ وكيف الانطلاق؟ وكيف السير إلى الله؟ سلوكًا ودعوة، فرادى وجماعات، تلك أسئلة جمعنا جوابها في مفاتيح ثلاثة، هي خلاصة البلاغ السابع والأخير من هذه الرسالة.

***
في المفاتيح الثلاثة

لا فائدة لحكم ليس يتحقق له مناط مطلقًا في حياة الإنسان، وإنما جاء الدين ليكون حركة إنسانية في الزمن والمكان، فلا نصوصًا تدل فقط، ولا قصصًا تحكي فحسب، وإنما الأمانة التي حملها الإنسان عمّل: "وَقُلْ أَعْمَلَوا فِسَائِرَ الْأَحْيَاءِ وَأَعْمَلُوا وَسَرَّدُوهُ إِلَى عَمَلِ الْأَيْبَرِ وَالْشَّهَدَةِ فَيَتَحْكُرُ يَا أَكْثَرُ نَصْرَالله" (المواز : 105).

والإسلام لما بين بلاغاته للناس بين هم - فيها بين هم - وسائط الوصول إليها، وطرائق اكتساب صفاتها، فجعل لكل أصل عملًا، ولكل عمل بابًا، ولكل باب مفتاحًا.

تبنيرة:

ومدار باب الخروج إلى العمل على ثلاثة مفاتيح، هي أصول لما سواها، تُسْكّنها في العبارات التالية:
- اغتنام المجالس.
- والتزام الروباط.
- وتبلغ الرسالات.

وبيان ذلك هو كما يلي:

* تبصرة:

فأما المفتاح الأول فهو اغتنام المجالس:

وهو أن تحرص على ( مجالس القرآن) وهي خير أنواع (مجلس الذكر) التي تضافرت الأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على أنها محوبة عند الله، مذكورة في مله الأعلى، تشهدها الملائكة، وتنزل عليها السكينة، وتغضاها الرحمة، ويذكرها الله في من عنده، وليس شيء أفيد منها في تربية الإنسان المسلم على الصلاح والفلاح، وهي من أهم الوسائل التربوية التي لا غنى فيها ولا غبار، من حيث استنادها إلى الأدلة المتواترة بالمعنى، عبر الأحاديث الوفيرة المستفيدة، نذكر منها الحديث المشهور، الذي رواه أبو هريرة مرفوعًا إلى النبي ﷺ، والذي فيه: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيهم الرحمة، وحفظهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» (1).

(1) رواه مسلم.
لا يكون له مثيل من الخير.


(1) متفق عليه.
القرآن، مساهمة في تصحيح ما انحرفت إليه بعض الحركات الإسلامية، حيث تحولت مجالهم التربوية، إلى اعتقاد كتاب فلان، أو علان، من التأليف الفكرية البشرية؛ منهجًا للدين والتدين. وهذا خطر كبير قد بيناه من قبل(1)، إذ بسبه يصيب الدعوات ما يصيبها من أثاثية، وذاتية، وشركية نفيسة في كثير من الأحيان. إن التربية الدعوية لا يمكن أن تستقيم على التوحيد الاعتقادي والعملية والوجداني؛ إلا بالتعلق المصدري بكتاب الله وسنة رسول الله في المجال التربوي، بالنسبة للمربي والمتربي سواء. فتدبر، ثم أبصر!

وقد تبين مما سبق أن علمنا يقوم على منهج واضح وبسيط: الاعتصام بالقرآن آية آية؛ مصدرًا أول للتدين، والدعوة إليه، والاعتصام بالشيائل المحمدية نموذجًا أعلى للتطبيق. فهو قسان، وكلاهما يجب أن تترجمه (مجلس القرآن)، ويبيان ذلك كا يلي:

تبصرة: القسم الأول: أُسلِكْ نُفُسُكَ وصاحبك في مجلس من (مجلس القرآن)، وبير من خلالة إلى الله. لاتهم كثيرة - في هذا الشأن خاصة - بالتنظيمات والجماعات، فإن نحن فيه أهم - من وجه - بكثير مما هي فيه، وهم أمران لا يتعارضان.

(1) انظر التوحيد والوساطة في التربية الدعوية للكتاب، الجزء الأول، نشر وزارة الأوقاف المصرية ضمن سلسلة كتاب الأمة. العدد: (47).
ولكن لا تنس (محاسن القرآن)، فذلك منهج النبي ﷺ في تلقين صلاته صفات الصلاة، ومقدمات الإصلاح. تعلم من القرآن مباشرة دعوة الخير: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 114].

تتبع منهج القرآن كما عرضه القرآن: التلاوة، والتعليم والتعليم، والدراسة والتدريس، ثم التذبّر؛ عسى أن تكون من المبصرين. فاجعل مجلس القرآن على هذه الفقرات الأربع، المؤصلة في كتاب الله وسورة رسول الله. وبيانها كيا لي:

أ- فأما التلاوة: فبكرة ويزكاة في نفسها، فقد ثبت الأجر - كما بُنِّى قَبْل - على كل حرف تلواه من القرآن، فلا تنس هذا.

والم بحث أُمر بالصلاة للقرآن في غير ما آية. قال سبحانه: ﴿وَأَنْتُم مَّا أُوْحِيَ إِلَيْكُمْ مِنْ كِتَابٍ يَمْكُرُونَ لاَ مُبْدِئُ لَكُمْ مِنْهُ وَلَن تَيَدِّدُونَ ﻣِنْ دُونِهِ مُلْبِسِيْا﴾ [الكهف: 27]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُلْطِبُ كَتِبَ ﷺ وَأَرْحَمَوْا الصَّالِحَةَ وَأَفْقَأَوْا مَعًا رَفْقَتِهِمْ سِيرًا وَعَلَانِيَةً بِرَجُوبٍ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ كَتَبْنَاهُ﴾ [فاطر: 29]، وقال: ﴿لَيْمُوْا سَوَاءٌ مِنْ آَهِي الْكِتَابِ أَمْنَةً قَالَهَا يَتَّلُونَ مَانِعً اِللهَ مَانِعً أَنْ يَكُونَنَّ وَهْمُ يَسْجَدُونَ﴾ [آل عمران: 113]، وقال تعالى: ﴿وَبَيْلِي الْفَرْجَانَ تَرْيَا﴾ [المزمل: 4]، ثم قال: ﴿قَأَرْنَا مَا يَنْبِرُ مِنْ الْفَرْجَانَ﴾ [المزمل: 20]. وفي الحديث الصحيح: ﴿الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البرية، والذي يقرأه ويتمتع فيه، وهو عليه شاق؛ له أجران﴾ (1).
فأقرأ كا استعفعت وتعلع; كي تذكرى، فقد رأيت أن التلاوة بدأ فعله من الترکية والتعليم، كا مر في قوله تعالى: ۚ پئین نپاک یکنیک ییکنیک ویکنیک یکنیک یکنیک یکنیک وکنیک یکنیک وکنیک یکنیک یکنیک یکنیک یکنیک یکنیک یکنیک [ آل عمران: ۱۶۴ ]، فالتلاوة نور في نفسها.

إليها - لو أبصرتها حقًا - صلة مباشرة بر بعده العالمين; ذكرًا ومناجاة، إن العبد التالي لكتب الله متكلم بكلام الله، وهذا وحده معنى عظيم في نفسه، فندب! وهو يمهد القلب ويهيه لخلوات التربوية التالية.

٢ - وأما التعليم والتعليم: فهو لأحكامه كا ذكرنا، وهو يكون بتحصيل العلم بالنفس وتنقية للغير؛ وذلك لقول الله تعالى: ۚ ویکنیک کونیک یکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک ییکنیک [ آل عمران: ۷۹ ]، فقد قُرِئَتْ ( تَمْضِیقْ ) و(تَمْضِیقْ ) فهي عملية مزدوجة، الجمع بين شقيها أولى: التعليم والتعليم، وأقل ذلك ينصح أن تكون أخذهما: معلًأ أو متعلًأ. بيد أن العلم ها هنا إنها هو ما أفاد العمل. على قاعدة على مقادير الشريعة: أن ( كل علم ليس تخته عمل فهو باطل )، وعلى هذا يحمل قوله: ۚ إن الدنيا ملءون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالماً أو متعلّأ (۱)، وقوله عليه الصلاة والسلام: ۚ إن الله لم يعبثني.

(۱) رواه الترمذي وابن ماجه بسنده حسن كا في صحيح الجامع الصغير (۱۱۰۹).
معنيًا ولا متعمِّنًا، ولكن يعني معلَّمًا ميسًّراً »١). أي: معلَّمًا أعجَل الخير والصلاح للمسلمين.


فالتدريس هو أساس التعلم كا في هذا الحديث، إذ لا علم إلا به، فأن تبحث عن وجوه المعني وتدريسها؛ لتعلم أحكامها ومقاسدها، وذكر التدرُّس أيضًا في الحديث السالف الذكر، من قوله عليه الصلاة وسلم: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يلتمون كتاب الله، ويتدرُّسونه بينهم»

(1) رواه مسلم.
(2) رواه مسلم.
لا تزال عليهم السكينة، وغشييتهم الرحمة، وخفيتهم الملائكة، وذكرهم الله في من عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه٦.

وأما التدبر: فهو - كما سبق بيانه - أنك إذ تقرأ الآيات، وتدرس، وتتعلم؛ تنظر إلى ملالتها، وعواقبها في النفس وفي المجتمع؛ فتبصر حقائقها الإيانية إبصارًا; فتكسب بذلك من الصفات، ما يعمق قلبك بالإيام، ويثبت قدمك في طريق المعرفة الربانية، ونحو ذلك من المعاني، لما فصلنااه قبل في محله، فلا حاجة لتكراره.

ذلك كله هو أساس التركيبة، ومقياس التصفية، ومنهج التربية، وسلم العروج إلى رضي الرحمن، فاقرأ القرآن، وتدرس، وتعلم، وتذكر، ثم أبصر! حتى يأتيك اليقين.

فاصبر على هذا المنهج، فإن كل آية تسلمك إلى الأخرى، وتفتح لك باب آسرارها، وأنوارها، فتتبع مسالك النور حتى تصل، إن شاء الله.

ذلك هو الاعتصام بكتاب الله، وأما الاعتصام بالشيائل المحمدية نموذجًا أعلى للتطبيق؛ فهو:

نبصرة: القسم الثاني: وهو أن تتبع معالم سير رسول الله ﷺ في كل ذلك، وهي مثبتة في كل كتب السنة وعلومها، إلا أن أجمع علوم السنة الموضوعة لبيان هذا المنهج، هو

(1) رواه مسلم.
المفاتيح الثلاثة

(علم الشهادات المحمدية): وهو علم يبحث في صفات رسول الله ﷺ الخلقية والخلقية، وكيفية سيرته مع ربه، وسيرته في نفسه، وفي أهله، وفي أصحابه والناس أجمعين. وإن ذلك هو القرآن كله مطبقًا، والإسلام كله حيًا متحركًا. فادرس من الكتب في ذلك ما شئت ولا حرج، أو اجمع نصوصه من حيثها شئت ولا حرج، وإنها الشرط أن تتحري الصحة في الخبر، ويكمل بذلك ما أردناه من معنى: (مجلس القرآن)، التي كانت هي مجلس الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وذلك هو المفتاح الأول.

تبصرة: وأما المفتاح الثاني فهو التزام الروباط:

وإنها القصد بالروباط بيوت الله حيثها كانت: في بيوت أقدان الله أن ترفع وleetsker فيها أسماها، يسبح لله فيها بالغدير والاصول، يقال لا تظهروا بجهذ ولا يبع عن ذكر الله وقادر الصلاة وإينال الركوب مأمون يوما تنقلب فيه الطرب والاصصر، يليجرون الله أحسن ما عيلوا ويزيدونهم من فضل الله والله يرزق من يشاء، يعمر حجاب، (النور: 38)، وذلك ما سياها رسول الله ﷺ (الرابط)، في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة، قال: "ألا أذلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟" قالوا: بل يا رسول الله. قال: "إسباغ الوضوء على المكاره، وكسر الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة،
فذلكم الرباط! فذلكم الرباط! فذلكم الرباط! » (1) فتدبر.. ثم
أبصر!

وإنها ( الرباط ) له دلالة جهادية في القرآن والسنة، وذلك هو المفهوم من فعل ( رابط ) الأمور به في قوله تعالى: "فَيَانْتَهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أصْبَحُوا وَصَابِرُوا وَزَارِبُوا وَانفْخَرُوا اللَّهُ لَكُمُ النُّفَلَاحُونَ" [ آل عمران: 200 ]؛ فقوله تعالى: ( رابطوا ) معناه - كما في سائر التفسير - صابروا على ملازمة مغور الجهاد;
لمراقبة العدو، والتصدي لغاراته، وحراسة المسلمين.

ولذلك فقد أورد الإمام البخاري هذه الآية في كتاب الجهاد والسير من صحيحه، في ترجمة ( باب: فضل ربط يوم في سبيل الله، وقول الله تعالى: "فَيَانْتَهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أصْبَحُوا" الآية. وأورد فيه الحديث الذي أخرجه مسلم أيضاً عن سهل بن سعد أنه رَسُوَّل الله ﷺ قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحاء يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدرة خير من الدنيا وما عليها " (2).

في هذا السياق الجهادي إذن استعمل النبي ﷺ لفظ ( الرباط )؛ للدلالة على التزام المساجد، والارتباط بندائهما;
فقال: "فذلكم الرباط! فذلكم الرباط! فذلكم الرباط! »

(1) رواه مالك في موطنه، ومسلم في صحيحه.
(2) متفق عليه.
هكذا ثلاث مرات، كما خرجناه قبل، وفي ذلك ما فيه من الدلالة العظيمة على امتداد (التربيبة الجهادية) من المسجد إلى الثغر، وفيه دلالة واضحة على أن ربط القلب بثغور العدو، قبل ربطه بثغور المساجد: إنها هو قلب مزان الجهاد ومفهومه في الإسلام، وتفريغ له من محتواه، فمن انهمز عن حصول الجوامع لا يمكنه أن ينتصر بفحص المدافع، تلك سنة الله التي سنها في عباده (البعوثين)، لتجديد الدين عبر الزمان: ((قلن تجد نسيب الله تبنيلاً، ون تجد يسً ملائمة الله تعالى))

[فاطر: ۴۳] فتدبر، ثم أبصر!

وإنها يقاس مدى نجاح تربتك في المجالس بمدى التزامك برابط الصلوات، ومن أخطأ هذا الميزان في التقويم الربوي الدعوي فقد أخطأ الحق كله! ونصوص القرآن والسنة في ذلك واضحة جدًا. بل هي بمجموعها دالّة على القطع مبئي ومعتنى، وقد سبقت في ذلك آية سورة النور، وحديث الرباط، لكنها مع ذلك نورد بعض النصوص الأخرى، الدالة على تهافت من شرد عن الساجد وجماعتها، وإن كان من المصليين، وفي جهنم واد لبعض المصلين أيضًا! نعوذ بالله منها؛ فعَنَّ عَبْد الله بن مسعود قال: "من سره أن يلقى الله غداً مسلسًا، فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادي نين، فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى وإنن من سنين الهدى. ولو أنكم صلتم في بيوتكم"
كما يصلى هذا المتخف فبيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم
سنة نبيكم لضللتكم، وما من رجلٍ يظهر في حسن الظهور
ثم يعمر إلى مسجد من هذه المساجد؟ إلا كتب الله له بكل
خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحك عنه بها
سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق، معلوم
النفاق، ولقد كان الرجل يبتئي به يهادي بين الرجلين حتى
يقام في الصف. (1) فتدبر. ثم أبصر!
فيا عجبًا لنايبته من الإسلاميين - زعموا - برعوا في
تنميق العبارات، والحطم السيارات، وحظه من الصلاة
ضئيل! وخطوهم إلى مساجدها قليل! فإن اضطرروا إلى ذلك
فهو خطو ثقيل! قد كاد ينطق عليهم قول الله تعالى:
فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا ككسالٍ يباهون أناساً ولا
يدكرهمك الله إلا قليلاً مُدَّدُونَ بِنَّ مَنْ ذَاكَ لَ لَهُ هُوَ الَّذِي
وَلَمْ يَكُ أَمْسِيَ. [ النساء: 142 ]
فأنتي يرجئ للامة صلاح على أبدهم؟ كيف وقد سبق
السابقون، المشاوار بنور الله في الظلم، إلى المرابطة كل فجر
بالصف الأول؟ وبقيت فلول المشترين يتلبس إيليس تغط
في دفء الأحلام، وخيالات ( التغيير الحضاري)! وحادي
الدعوة إلى الله ينادي حزينًا:

(1) رواه مسلم.
ما للجمال مشيئاً وريدًا
أجَنُدْنَأْ لا يَحْيِنَ أَمَّ حَدِيدها؟
فانظر ما أشد قول النبي ﷺ في المتخلفين عن جماعات
الجوامع، حيث قال ﷺ: «أنقل الصلاة على المنافقين صلاة
العشاء وصلاة الفجر! ولو علمون ما فيها لأنوهما ولو حبو!».
ولقد هممت أن أمر بالصلاة فقتام; ثم أمر رجلًا فصيلي بالناس، ثم
أنطلق معي رجال معهم حزم من حطب، إلى قوم لا يشهدون
الصلاة; فأحرق عليهم بيوتهم بالنار!» (1). وروي عنه أيضًا
بصيغة أخرى صحيحة؛ قال ﷺ: «وَالذِي نَفْسِي بِيُهُدَى لَقَدْ هَمَّت
أن أمر بحطب فيحطب، ثم أمر بالصلاة ليؤذن لها، ثم أمر رجلًا
فيوم الناس، ثم أخلف إلى رجال؛ فأحرق عليهم بيوتهم! والذي
نفسي بيه! لو علم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا، أو مرماتين
حتستين؛ لشهد العشاء!» (2).

رباط المسجد هو المدرسة الأساس للدعوة الإسلامية،
منذ عهد رسول الله ﷺ إلى عهد كل من سار على سنته في
تجديد الدين، لذلك النهج الذي إن فاتك - يا عبّد - فاتك
الخير كله! وتلك دولة (المرابطين) في تاريخ المغرب الأقصى
(430 هـ إلى 541 هـ)، إنها قامت يوم قامت على منهج

(1) متفق عليه.
(2) رواه البخاري ومالك في موطبه.
تكوين الرباطات، انطلاقًا من أول رباط أنشؤوه بإحدى جزر المحيط الأطلسي بالجنوب المغربي، قرب شنقيط.

فمن هنالك شرع داعيتهم الأول عبد الله بن ياسين - وكان من المصريين - في تربية الناس على شيء واحد لا ثاني له: الصلاة! وكانت له عقوبة تعزيرية عجيبة لم تأخر عن الجماعة بالرباط، إذ كان يجلد المتأخر بكل ركعة عشر جلادات! وهم راضون بذلك مقبولون عليه باختيارهم! فكان له أن يلزم الناس بالرابطة معه في رباطه التربوي قبل التمكين، حتى إذا بدأ له من صلاحهم ما جعلهم - في نظره - أهلًا ببناء الإسلام، ونشره بين الناس. خرج من رباطه، يفتح يد المدن والقرى، وينشئ لكل بلدة فتحها مسجدًا، يجعله لأهلها رباطًا للتربية والتعليم! استجابًا للمنهج التربوي النبوي، الذي به ضمان الاستمرار على النصر والتمكين.

وبذلك مكن الله للإسلام في المغرب إلى الأبد، ذلك أنه رغم ما كان من دولة الأدارسة قبل المرابطين؛ فإن الإسلام لم يتجذر حقيقة في كل القبائل الأمازيغية، إذ يتحدث المؤرخون عن بقاء الوثنية، دينًا مستمرًا في كثير من الجبال والصحاري! ومن كانوا على الإسلام كانوا على انحراف شديد، وقد وجد عبد الله بن ياسين مسلمي قبائل الصحراء يتزوجون أكثر من أربع نسوة، فجعل الله من دولة المرابطين
تمكين الحقيقي للإسلام في البلاد المغربية مطلقًا، حتى إذا زالت دولتهم - كما تزول الدول - بقي الإسلام ممتدًا، متجررًا بالمغرب، أصله ثابت وفرعه في السياق، إلى يوم القيامة إن شاء الله.

فتدبر.. ثم أبصر!

تبصرة: (التزام الرباط) إذن؛ هو تمام صلاح العبد وصديقته، وإن (جلوسًا) للذكر والتدارس، دون التزم الأوقات بالرباطات؛ هو أشبه ما يكون بعملية ملء الإباء المتوقع؛ لا يكاد يمتلئ حتى يكون من الفارغين! فأنظر لك أصحاباً من حي وناديك؛ ثم اجعل لك - معهم – من مسجدكم الجامع رباطًا؛ تكن من الصالحين، ومن أهل البعثة المجددين، ذلك هو المفتاح الثاني، فجرب ترا! وتدبر.. ثم أبصر!

تبصرة: وأما أنبت أيتها الأخ الأخت المؤمنة، فلا نلزمك بها لم يلزمك الله به، وقد كفاك رسول الله ﷺ رباط المساجد. وإنما فلكك السيار هو هذه الصلاوات بمنازل الأوقات، بيد أنّا محدثون عن رباطك الخاص، ألا وهو جلبابك الشرعي.

ذلك هو رباطك الذي فرضه الله علّيكم فرضًا، إذ أنزل فيه قرآناً ينال إلى يوم القيامة: (بِيَاتِيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيْنَ مَا كَأَسَبُوهَا فَاللَّهُ بِهِمْ كَانَ رَبُّهُمْ عَلِيمًا) [الأحزاب: 59].
فجلبابك الضافي، الساتر الوافي، هو عنوان تقواك وورعك، وراية انتفاك لأنتم، به تعرفين من دون العاريات، فلا يصل إليك الأدّى بإذن الله. ذلك منطوق الآية العظيمة، فتدبري..! (ذلك أدنى أن يعترق فلا يُؤذّنٌ)

[النحزاب: 59]؛ أي أنه تميّز لك، ورفع وتكريم، وتنزيه أن تشتيت على الساقطين بالساقطات! خاصة في زمانا هذا، حيث صار جسد المرأة سلعة معرضة في سوق العولمة الدولي، وإنها ( العولمة ) هي حركة تهديد العالم، حركة صارت المرأة فيها جسدًا بلا روح، جسدًا للاستهلاك الجنسي الساقط، ملء شوارع العالم، وتلفزيوناته.

أيتها المسلمّة! إنك مسلمة، فتستري! ادخلي رباط الصلاة والفلاح، واجعل عفافك عنوان هويتك! كذلك يقول دينك العظيم، فقولي ملء العالم كله: ( أنا محجبة إذن أنا موجودة! ) وإلا فعلى دينك السلام!

قال جل وعلا في تفصيل أحكام ذلك: ( وقُل لِّلْمُؤمِنَاتِ بِعَضُوضَنِّ مِنْ أَصْدَحَرِينِ وَيَخْفُضُنَّ فُوُجَهَنَّ وَلَا يَبْنِينَ مَيْلًا زَيْتَنَّهَا إِلَّا مَا ظُلِّمَتْهَا وَلَيْضَرُّنَّ يَخْرُجُونَ عَلَى جَيْبِهِنَّ وَلَا يَبْنِينَ مَيْلًا زَيْتَنَّهَا إِلَّا يَعْمَعُونَهَا أو مَّا أَرَبَّبَتْهَا أو كَفَّارَتْهَا وَلَا يَعْمَعُونَهَا أو أَسْتَيْعَبَتْهَا أو أنْتُيِّبَتْهَا أو مَّا أَرَبَّبَتْهَا أو كَفَّارَتْهَا وَلَا يَعْمَعُونَهَا أو أنْتُيِّبَتْهَا أو مَّا مَلْكَتْ أَسْمَىَهَا أو الطَّيِّبَةَ عَيْنُ أوّلِي لِلْأَمْيَةِ مِنَ الْبِيْكَالِ أو الطَّيِّبَةِ لَهُمْ لَوْ يَظْهَرُوا عَلَى عُورَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِينَ
هذا حكم الله، وهو حكم من الرتبة التشريعة الأولى، قوته الإلزامية تأتي التأويلات الفاسدة، والتحريفات المغرضة؛ ولذلك أنذر النبي ﷺ العاريات إماعة رهيبة، فقال ﷺ: "صنف من أهل النار أم أهله! قوم معهم سيئان، كأن ذات النبي يضرون بها الناس، ويشاء كاسبات عاريات، ميالات ميالات، رؤوسهم كأشية البخينة الماء، لا يدخلى الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من سبيرة كلّها وكدّا" ((4)). ذلك الحق: "كم أعاد الله الحق إلا الظالم" [يوسف: 32].

قلت: ذلك حكم الله، ومن رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبىً ورسولًا، فتدبري - بنيتي - هذه الآية العظيمة ثم أبصري! قال الله تعالى يخطب رسوله ﷺ: "فلأَورِكُلَّ يَوْمَ يَوْمُكُمْ حَتَّى يُحْكَمْكُمْ فيما سَبَّحَ بِهِ نَفْسَكُمْ ثُمَّ لا يُجَادِدُونَ في أنفُسِهِمْ حَرَجًا أُمَّا قَضَائِهِمْ" [النساء: 65].

اقرأها ثم أقرئها...! وتدبري، ثم أبصري!

اليوم تدور حرب حضارية كبرى، هذا قدر زماننا، فإما أن تكون فيه - كأ يجب أن يكون - أو لا يكون!

العربي هزيمة! والعفاف خطوة كبرى في طريق الانتصار،

(1) رواه مسلم.
ومن هنا جاء فرض الحجاب في القرآن، وفي القرآن نفسه قبل سواه، وما نزل القرآن بحكم إلا كان أمرًا جليلًا، وعزمًا مبينًا، وكان هكذا جرمًا عظيماً. فالستر يا بنيتي - لو تبصر - جمال وجلال.

لباسك الشرعي أيتها الأخت المؤمنة هو - مع كل ما ذكر بهذه الرسالة مما سوى المسجد - ميزان وفائزك العهد مع الله، ومدى التزامك بمهائه. فتكالف الدين ليست خاصة بالرجال، بل هي عامة في النساء والرجال على السواء، كل ما عليهم عليك، وكل ما لهم لك، إلا ما استثناء الدليل، قال تعالى: (فأشتاقوا لظلمتهم إذ لا أصيبهم علماً صلى اللَّهُ علَى ملائِك مَن ذُكِّرَ أر أَنَّى بعَضْكَمْ يَنْتَبِعُونَ [ آية عثمان: 195 ] . إن الدين عهد، وإن الإسلام بيعة، تعلقت بأعناق المسلمين من الرجال والنساء جميعًا، فإما وفاء، وإما نقصًا وعياذ بالله! ويوم الحساب الكوني قريب! ومن هنا كان لباسك الشرعي - بنيتي - يشكل جزءًا جوهريًا من (بيعة النساء)، كَأَجاء مفصلًا في حديث عبد الله ابن عمرو قال: جاءت أميمة بنت رقية إلى رسول الله ﷺ تباعيه على الإسلام فقال: أَبْيَعَكَ عَلَىَّ لا تشاركي بالله شيئًا، ولا تسريقي، ولا تزني، ولا تقلتي ولدك، ولا تأتي بينه وبين بديك ورجليك، ولا تنوحي، ولا تجري برج الجاهلية الأولى! ».

(1) رواه أحمد والطبري، وقال الهيشم في مجمع الزواري: رجاله ثقات.
عهد الله، فهل وقُتِتْ؟ وذلك مثاقله الذي واتَّقِك به فهل صدقته؟

لباسك رباطك بنيتي، فنجم بلاغات القرآن على يديك
التزامًا ودعوةً: إنها هو بمهامه، فانطلقي سيرًا إلى الله
طوعًا! واعتصمبي بصيرة الصبر العظيمة، وهي قول الله تعالى:
» يَّبْنِيْهَا آلِ ذَٰلِكَ عَانِمِيْتُمُّ أَصْبَرُوا وَصَبِّرْوا وَرَابِطُوا وَأَنْقَعُوا الله
۲۰۰ [ نَعْلَمُكُم نُفْلِحُونَ ] (آل عمران: 200). 

فبلساك الشرعي، أي: جلببك الفضاض، الذي
لا يصف ولا يشف، إنها هو راية دعوة وجهاد لو تعلمين!
إنه ناطق بكثير من المعاني، إنه يعلن للعالمين أن المرأة المسلمة
ليست مجرد جسد للتاجرة، في أسواق السياسة والإعلام!
إنها نفس إنسانية تُبَشِّح في ذلك الأمانة الكونية التي حملها
الإنسان، تؤدي وظيفتها الحقيقية، عاشرة في الأرض على
المنهج الرباني، والتكليف الرسالي، تحمل بلاغات القرآن،
في طريقها إلى الله، سائرة على أثر الأنبياء والصديقين
والشهداء، من القرآن إلى العمران.

تبصِّر: وأما المفتاح الثالث فهو تبلغ الرسالات:
وتباشر هذا المفتاح هو: جواب ( كيف البلاغ؟) أما
تأصيله فقد سبق تقريره بقواعده في تباشر البلاغ الخامس،
من بلاغات الرسالة القرآنية، وذلك ما جعلناه ( في الدعوة
إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ).
تبصرة: كيف البلاغ؟ ليس البلاغ اليوم في المسلمين بلاغ (خبر) هذا الدين، فذلك أمر قام به الأولون، وما بقي اليوم صقع في الأرض لم تبلغه قصة الرسالة الإسلامية، على الجملة، ثم إنها المصصود بمشروعا هذا هو دار الإسلام، هذا العالم الإسلامي الذي لآن فيه الثدين، وضعف فيه التمسك بالكتاب، مع أنه يتلوه - أو يتلى عليه - كل حين.

إذا المسلمون اليوم في حاجة إلى (النصير)، إنصر الحقائق القرآنية التي تلهم صلى مصافحة، وهم عنها عموما، على نحو ما وصف الله سبحانه وتعالى في قوله: "وَرَبِّهِمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (الأعراف 198)", وقوله سبحانه: "وَسُكْنِينَ مِنْ بَعْضٍ مَّيْئَاتٍ (الأنعام 105)", فالبلاغ الذي نحن في حاجة إليه إنها هو بلاغ (النصير)، لا بلاغ التخيير.

وأما مادته فإن ذكرناه من أصول الرسالة القرآنية، وبلاغات القرآن: من اكتشاف القرآن العظيم، والتعرف إلى الله والتعريف به وأكتشاف الحياة الآخرة، واكتشاف الصلوات وحفظ الأوقات، وحقيقة الدعوة إلى الخير، وحكمة اتباع السنة؛ تركية وتعليمية ومحليًا، ومفاتيح ذلك كله في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وأما وسيلة فأصول وفروع، أما الفروع فلا تتحصر،
وإنها الشرط فيها عدم نقض أصولها، ومعلوم في قواعد الأصول أن (كل فرع عاد على أصله بالإبطال فهو باطل).

وأما الأصول فأحسب أن مدارها على أمرين: سقي وتجديد. وقد سبق لنا بيانهما في ورقتنا الدعوية: (نظرة السقية الروحي والتجديد المتعدد الأبنات) (1)؛ والمقصود بالسقي الروحي: استعارة حركة آلة السقي الروحية في المجال الزراعي، التي ترش الماء على المزروعات بصورة شمولية، ترش على كل ما حولها من جميع جهاتها، في حركة دائرة دائمة، وذلك هو حال المؤمن في حركته الدعوية، يدور مع كلمة الخير حيث دارت، يسقي بها كل من لقيه في طريقه، وكل من اتصل به، في أي ظرف من الظروف (يبصّر الناس بحقائقها واعظًا وخطيبًا ومتحدثًا ومحاربًا ومناظرًا، وقابضًا، وقاعدًا، وراجلاً، راكباً، وفي المسجد وفي السوق وفي المكتب وفي الجامعة وفي المدرسة وفي المستشفى وفي الشارع... إلخ، فلا يزال مستنيرًا بقاعدة القرآن: "وَمَنْ أُهْسِنَ فَوَلَّى مَنْ دَعَاءَ إِلَىَّ اللَّهِ وَعَمِّيَ صَلِيلًا وَقَالَ إِنَّيْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ") (نصت: 33)، ذلك سقي روحي.

(1) تلك كانت ورقة دعوية سابقاً لنا إعدادها بعنوان: (نظرة السقية الروحي والتجديد العشري)، طبلاً للعدد: "عشرة" في تنظيم جلسات التربية لقاصد حركة، ثم عدلنا عنه لما تبين لنا من ضرورة تأديم الدعوة من جهة، ومن أن حصر العدد في عشرة فيه نوع من التحكم غير المشروع؛ فعبرنا به (التجديد المتعدد الأبنات) بإطلاق، وإنها الموفق من وفقة الله.
وأما التذ空气 فهو غرس جذور المقبلين على الخطاب القرآني وبصائره المستفيدين من حقائقه. وإنها التذ空气 المفيد هنا هو ( التذ空气 المتعدد الإنبات )، ذلك أن جذور النبات والشجر على نوعين: نوع مقتصر في وظيفته على نبتة واحدة، أو شجرة واحدة؛ إمدادًا عموديًا بالماء والغذاء، ونوع ثان له طبيعة متكررة متداخلة، بحيث تتعدل وظيفته إمداد شجرته أو نبتته، إلى إنبات شجرة أخرى جديدة، أو إخراج نبتة أخرى جديدة، بصورة أفقية، تتكاثر شجرًا، أو نبتًا متاثرين هنا وهناك، فمثال ذلك في الشجر: القصب والصفصاف ونحوهما، ومثاله في النبات: النجم البري، وكذلك النجم الروماني الذي يزين به اليوم الخدعاق العامة.

فمثل هذه الأشجار والنباتات بمجرد ما تضع لها في الكلمة جذرًا واحدًا وتسقيه بقاء حتى يقوم بوظيفتين: الأولى أنه ينبت نبتته الخضراء، والثانية: أنه يسرح تحت الأرض ليفتق التربة في مكان آخر، بنبتة أخرى جديدة. ويتكرار ذلك بصورة متوازية؛ حتى يخسر المكان كله، ويفيض بالنبات، أو الشجر، كذلك المؤمنون المستجيبين لبلاغ الرسالة القرآنية، فإنهم تمد لهم جذور التربة في تربة الرياح، ويسكنون بعد ذلك بأي مكان.

ويمكن أن يربطوا بهذه قبل ذلك، لا حرج عليك بأيها بدأت، حسباً تسر لك، لكن بشرط أن يؤول الغرس في
النهاية إلى تربة المسجد، إذ يجب أن تعلم أن رباط المسجد هو غاية الوسائل ووسيلة الغايات، وأن المجالس إنها هي سقاؤه، وطالما تباهت التنظيمات والتحركات بكثرة خلياها وأعدادها، وليس لها من رباط المسجد نصيب، فلا يمضي من الزمن إلا قليل حتى ترتد تلك الجمع في أذى، وتتساقط لقى مهملا بين المقاهي واللاحية!

المسجد هو أساس عّدّك واعدادك، فاغرس برياضه (رُبُطًا)، واجعل منها نسل دعاوتك، ثم اجعل جلسة القرآن لها مدرسة، تغذيها وتميها، وابن على ذلك في منهج التبصير بحقائق هذا الدين؛ بعثًا وتجديدًا! فذلك - وبذلك فقط - تبني الصفوف، من رام الدعوة إلى الله على منهج رسول الله ﷺ.

السقي والتجذير مصطلحان زراعيان استعملهما للتمثيل والتقريب، وإنها ذلك ما عبرنا عنه من قبل في كتابنا ( التوحيد والوساطة في التربية الدعوية ) (1) ب (الأرقامية) و (المنبرية)؛ ف (الأرقامية): نسبة إلى مجالس الرسول ﷺ وصحابته، بدار الأرقام بن أبي الأرقم، قبل الهجرة ( والمنبرية): نسبة إلى منهج الخطابي، الذي عرف من على منبر المدينة، والحقيقة أن المنبرية والأرقامية منهج متكامل، لا يستغني أدهما عن الآخر؛ فالمنبرية هو ما بدأ به الرسول ﷺ أول الأمر، وصعد

(1) انظر التوحيد والوساطة في التربية الدعوية للكاتب، الجزء الأول، نشر وزارة الأوقاف القطرية ضمن سلسلة كتاب الأمة. العدد: (47).

وأما الأرقمية فقد كانت في المرحلة الملكية تحتضن كل من أجاب الخطاب المنبري، فتجذره بترية المجالس بدار الأرقم، أو بشعاب مكة وجبالها، فتلك المجالس هي التي آلت بعد الهجرة إلى المسجد؛ مجالس للذكر وصلوات، ذلك المناهج النبيي الحق إن شاء الله، وإنها الموفق من وفقه الله.

***

(1) متفق عليه.
وخاتمتنا فاتحة خير لي ولك إن شاء الله، ففتح بها سبيل الخروج بهذه البلاغات - عبر باب العمل - إلى حيز التطبيق؛ لبناء النفس والمجتمع، في المفاتيح الثلاثة: (اغتنام المجالس، والتزام الرباطات، وتبليغ الرسالات)، فمن جمعها جمع الخير كله، يتلك هي خلاصة البلاغات القرآنية، وذلك هو المنهج التطبيقي البسيط، والفعال؛ للوصول إلى مقاصد البلاغ الرباني، وإيصالها إلى كل إنسان؛ معرفة وذوقًا، وإيضارًا وتبصيرًا، فاهتم بالقرآن والسنة، بالمنهج الذي ذكرنا مؤصلًا بأصوله وقواعد، اهتم بتنزيل أحكامها على نفسك وعلى أهلك، ثم على من حولك من الناس، واسع من أقصى المدينة إلى أقصائها؛ لتذكر المسلمون وغيرهم بلغات القرآن، أعني الأصول الكبرى للدين، اعتقادًا وعملًا، كما بينًا وشرحنا، اطرف أبواب القلوب! وخاطب فطرتها؛ تجد الأسباع مصغية، والأفكار واعية; عسى أن يجعل الله لك
القبول في الأرض، والقبول في السهاء؛ فتكون إن شاء الله من الصالحين.

"يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصبراً وراطبوا وأنتموا الله لعلكم تفلحون" [آل عمران: 200].

وكبته راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلى رحمته ورضوته:

فرید بن الحسن الأنصاري
الخزرجي السلمي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين.
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
وكأن الفواغ من تبييضه وتصحيحه - بمكناسة الزينون،
من حواضر المغرب الأقصى - فجر يوم الأربعاء

***

رقم الإبداع
2009/9792
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-342-741-2
نبذة عن المؤلف

- فريد الأنصاري.
- وُلد بإقليم الرشيدية جنوب شرقي المغرب سنة: (1380 هـ/1960م).
- حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب المحمدية، المغرب.
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا «دكتوراه السلك الثالث» في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب – الرباط.
- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) «الماجستير» في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب – الرباط.
- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة السلطان محمد بن عبد الله، كلية الآداب - فاس/ المغرب.

- صدر له من الدراسات العلمية:

1- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية "الجزء الأول والثاني" نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، صدر ضمن سلسلة كتاب الأمة القطرية بالعددين: (47 و48). السنة (1416 هـ/1995 م).


3- قناديل الصلاة "كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة«، دار السلام، بالقاهرة: (2009 م).

4- المصطلح الأصلي عند الشاطبي "أطروحة دكتوراه"، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة بدار البيضاء، ط. الأول: (1424 هـ/2004 م).

5- الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب، دراسة في التدافع الاجتماعي، منشورات الفكر والدار البيضاء، ط. الأول: (1420 هـ/2000 م).
نبذة عن المؤلف

6- سماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة
(منشورات ألوان مغربية. الطبعة الأولى، الرباط - طوب بريس: 2003م).

7- ميثاق العهد في مسائل التعرف إلى الله، مطبعة أنفوبرانت فاس. ط. الأولى: (1424هـ/2003م).

8- مفاتيح النور، دراسة للمصطلحات المتاحة لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث ياسينبول باالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة نيسان ياسينبول، ط. الأولى: (2004م).

9- مجالس القرآن: مدارس في رسائل المدحتي المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ، دار السلام، بالقاهرة: (2009م).

10- جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، دار السلام، بالقاهرة: (2009م).

11- مفهوم العامليّة، دار السلام، بالقاهرة: (2009م).

12- الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، مطبعة الكلمة، مكناس/المغرب، ط. الأولى: (2007م).

14- البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، دار السلام، بالقاهرة: (2009م).
- ومن الأعمال الأدبية:
3- جداول الروح: شعر، مشترك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح، مطبعة سندي، مكناس: (1997م).
4- ديوان الإشارات، طبع دار النجاح الجديدة، منشورات الدفاع الثقافي بالمغرب: (1999م).
5- كشف المحبوب: رواية، مطبعة أنفوبرانت، فاس: (1999م).
6- آخر الفرسان، رواية. نشر دار النيل، إسطنبول: (2006م).
- ملحوظة: تُطلب جميع كتبنا في طبعاتها الجديدة والمنقحة، من كارلتون للطباعة والنشر والتوزيع، بالقاهرة، ووكالاتها في العالم قريباً. الأصدار